

في كل شهر عربي

الجزء العاشر	٢٠ شوال سنة ١٣٦٠	المجلد الثاني عشر

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراكات عن سنة

	مليم
داخل القطر	٢٠٠
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ...	١٠٠
خارج القطر	٣٠٠

ثمن الجزء الواحد ٢٠ مليما داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر — ١٩٤١)

فهرس

الجزء العاشر — المجلد الثانى عشر

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

يلقى درسا دينيا فى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم بالجامع الأزهر

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول ، فشهد الدرس الدينى الذى ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى ، شيخ الجامع الأزهر ، فى الجامع الأزهر ، بعد صلاة العصر يوم الاثنين ٨ من رمضان سنة ١٣٦٠ . وكان يحف بجلالته من رجال الدولة والعلماء والوجهاء والطلبة عدد عظيم يليق بجلال هذه السُّنة الملكية ، التى تعتبر أعظم ما يُعز به الاسلامَ ملك عظيم فى الزمان الأخير .

وكان فضيلة الأستاذ الامام ، كعادته فى كل عام ، يشرح آيات الذكر الحكيم على أسلوبه القويم ، من تبيين معانى الألفاظ ، وما يتصل بهذه المعانى من أبحاث ، ثم يلم بالمعنى العام بعد أن يكون ذهن السامع قد أدركه قبل أن يلقى اليه ، وهى مقدرة فى البيان لم نصادف من يشارك الأستاذ الامام فيها فى هذا العصر .

بسم الله الرحمن الرحيم

«الٓمٓ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» :

« الم » : هذه وأمثالها من أسماء حروف الهجاء التى ابتدأ الله بها بعض سور القرآن أسماء للسور المبتدأة بها . ولا يجوز حملها على غير ذلك ، لأنها لم توضع فى لغة العرب لمعان غير الحروف ؛ والقرآن جار على لغة العرب فى مفرداته ونظمه وأسلوبه ، فلا يفسر بغير ما تفيده لغة العرب ، فاذا لم تجعل ألقابا وأسماء للسور لم يكن لها معنى ، ومن الواجب أن يكون لكل شىء جاء فى القرآن معنى .

وبعد : فمن الممكن أن يقال فى سبب تسمية السور بها إنه الاشارة الى إعجاز القرآن الذى امتاز به عن سائر الكلام ؛ وكأن الله سبحانه يقول للمعاندين : إن القرآن من جنس هذه الحروف التى تعرفونها ، وليس من مادة غير معروفة ، فاذا لم تستطيعوا الإتيان بمثله وأنتم الفصحاء والبلغاء ، فقد وضح أنه ليس من جنس كلام البشر ، وبان أنه من عند الله .

« تلك آيات الكتاب الحكيم » :

الآية معناها فى الأصل العلامة الظاهرة ، ثم أطلقت على كل قسم من الأقسام التى تتألف منها سور القرآن ، والتى يفصل بعضها عن بعض بالوقف فى التلاوة وفى الكتابة ببياض أو نقط أو عدد .

والعمدة فى معرفة الآيات وعددها هو التوقيف المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم . وسميت هذه الأقسام آيات ، لأنها دلائل على الأحكام والحكم ، والمعارف الدقيقة والعقائد الحقة ، ثم هى بعد ذلك دلائل أيضا على إعجاز القرآن .

والكتاب الحكيم : هو القرآن الكريم المعهود عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند المخاطبين وقت نزول القرآن ، فقد وعد صلى الله عليه وسلم بكتاب ينزل عليه من عند الله عند مبعثه ، وعرف ذلك أيضا فى الوسط الذى كان يعيش فيه ، وعرف هذا من قول الله سبحانه : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .

والحكيم هنا معناه المشتمل على الحكمة ، وهى إصابة الحق . ومتى كان القرآن مشتملا على الحكمة جاز أن يوصف بأنه حاكم لأنه يجب رد كل شىء إليه . ومن ذلك قول الله : « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » . وجاز أن يقال إنه محكم لا فساد فيه ولا خلل : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

ومن المعروف أن آيات هذه السورة ليست أول الآيات نزولا ، وليست آخرها ، وإذا كان الأمر كذلك جاز أن تكون الإشارة الى آيات هذه السورة ، وأن تكون الى التى قبلها ، وأن تكون الى جميع ذلك ، وإلى ما سينزل بعد . والمعنى واضح بعد هذا ، وهو أن الآيات التى تتألف منها سور القرآن فيها الحكمة ، وفيها الخير والسعادة ، وفيها العلم والرشاد ، وفيها الدلالة الى طريق الحق ، فهى صلاح العباد فى الدنيا والآخرة ، ذلك لأنها أجزاء القرآن الحكيم المنزل من رب العباد لصلاح حالهم وسعادتهم .

« هدى ورحمة للمحسنين » :

تطلق الهداية على الدلالة على طريق الحق ، سواء أوجد معها الوصول الى البغية أم لم يوجد . ومن ذلك قوله سبحانه : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » .

وتستعمل بمعنى أخص وهو الدلالة على طريق الحق مع الوصول إليه ، كما فى هذه الآية ، وسيتضح بعد .

والرحمة هنا معناها الإنعام والإفضال ، ويقال الإحسان على الاحسان فى العقيدة ، وفى العمل ، وفى القول ، وهو أن تكون العقيدة حقة ، والعمل صالحا خالصا لله سبحانه ، والقول سديدا رشيدا .

وقول الله سبحانه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » يدل على أن الاحسان فوق العدل ؛ فالعدل أن يعطى المرء ما عليه ، ويأخذ ماله . والاحسان أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له ، ولذلك قال الله سبحانه : « إن الله يحب المحسنين »

وفى الحديث الصحيح : كان صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس، فأتاه رجل، فقال: ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته ، وبكتابه ورسله ، وتؤمن بالبعث الآخر . قال : ما الاسلام ؟ قال : أن تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال: ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فانه يراك . ثم أدبر الرجل . فقال ردوه ، فلم يروا شيئا ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . وخير ما يفسر به كتاب الله ما صح عن رسول الله .

فهذا هو الاحسان فى العبادة ، وهى تشمل العقيدة والعمل الصالح . فاذا راعى المؤمن فى كل شىء يؤديه ، وفى كل شىء يدعه ، أنه يرى الله أو أن الله يراه ، تحقق الإخلاص فى العمل لا شك ، وأدى العمل على أحسن الوجوه وأكملها . وملاحظة الله سبحانه فيها ملاحظة صفاته جميعها أو أظهرها وهى الخلق ، والأمر ، والتدبير ، والحكم فى يوم الجزاء ، وتوزيع المكافأة على الأعمال . وفى الكتاب الكريم آيات كثيرة ترشد الى طلب استحضار الذات فى العبادات ؛ من ذلك قوله سبحانه : « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » . ثم هو يذكر الناس دائما بأنه معهم « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » « وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » « إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . وقد وعد الله المحسنين أن يوفيهم أجرهم « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » « إن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وصف الله سبحانه آيات الكتاب الحكيم بأنها تهدى المحسنين فى عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم ، وبأنها تأخذ بيدهم الى طريق الحق ، وتشرح صدورهم ، وتعينهم معونة خاصة تسهل عليهم الطاعات وترك المعاصى ، وتبلغهم أعلى الدرجات فى الدنيا والآخرة ، وتفتح لهم أبواب المعرفة والعلم ؛ وبأنها نعمة من الله وفضل ، بها صلاح الانسان فى الدنيا إن اتبعها ، وفيها عزه وطمأنينته إن عمل بها واعتبر ، وفى الإعراض عنها ذله وشقاؤه . وكما وصف الله الآيات هنا بأنها هدى للمحسنين ، وصف الكتاب فى سورة أخرى بأنه هدى للمتقين ، ووصفه مرة أخرى بأنه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

فى هذه المواضع جميعها يجب أن تفسر الهداية بأنها الدلالة الموصلة الى المطلوب فعلا ،

وهى الدلالة مع المعـونة الخاصة وتيسير الطاعة وشرح الصـدور لها . لـكن الله سبحانه فى آية أخرى وصف الـكتاب بأنه هدى للناس ، مثل قوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس » ، ومثل قوله : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » فجعله فى ذاته هاديا . ومثل هـذه الآيات تفسر فيها الهداية بأنها الدلالة الى الحق ، ولا يؤخذ فى معناها الوصول الى المطلوب .

والقرآن لا شك أنه فى ذاته دال على طريق الحق ، لأن آياته الخاصة بذات الحق وصفاته تقرر الحق الثابت الذى اهتدت إليه العقول الصحيحة من غير معونة بالأديان ، وسيظهر هذا فيما بعد عند ذكر لقمان وحكمته ؛ ولأنه يعتمد دائما فى الاستدلال على ما هو ظاهر واضح ثابت فى كتاب الوجود الذى يدل دلالة قاطعة على الخالق وعظمته وقدرته ؛ ولأن اياته التى اشتملت على أصول الأخلاق هى أكمل ما يمكن أن يتصف به الانسان فى هذه الحياة ؛ ولأن نظمه للجماعة الانسانية هى النظم الحقة التى سعد بها الناس عند ما عملوا بها ؛ وما هذا الشقاء الذى يكتوى العالم بناره ، ويعمهم شره ، إلا نتيجة البعد عن الهدى الإلهى ، وثمرة لهذه المذاهب الضالة التى اخترعها الملاحدة وزينوها للناس ؛ وليس هذا الخزى والعار الذى عليه المسلمون اليوم ، إلا نتيجة الايمان ببعض الـكتاب والـكفر ببعضه ، ونتيجة إغفاله وعدم تدبره ؛ ولذلك حق عليهم قول الله سبحانه : « أفتؤمنون ببعض الـكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » .

صدق الله ، فقد حق الخزى فى الحياة الدنيا عليهم ، أما جزاء الآخرة وهو أشد العذاب فسيلاقيهم ، لأن الله صادق الوعد كما هو صادق الوعيد .

القرآن فى ذاته هدى ، وفى ذاته رحمة ، لـكنه لا ينتفع به إلا من يقبل عليه ويؤمن به إيمانا كاملا ، ويخلص فى عمله إخلاصا كاملا . ومثله مثل نجوم السّماء ، هى هادية فى ذاتها لـكنها لا ينتفع بهدايتها إلا العلماء ، فليس العيب عيب الـكتاب ، لـكنه عيب أهل الـكتاب ، وقد قرأ بعض القراء هدى ورحمة بالنصب ، وبعضهم هدى ورحمة بالرفع ، وهما قراءتان صحيحتان لا يختلفان فى المعنى .

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » :

هذه أوصاف المحسنين ، فهم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون .

وقد سبق فى بيان معنى الإحسان ما يفيد أنه أخص من الإيمان وأخص من التقوى . ونحن نعلم أن الله سبحانه وصف المؤمنين فى سورة المؤمنين بأكثر من هذه الأوصاف ، ووصف المتقين فى أول سورة البقرة بأكثر من هـذه الأوصاف ، وبيّن صفات أهل البر بأكثر من

هذا فى قوله : « ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولـكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والـكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

فما هو السر فى الاقتصار هنا على هذه الصفات القليلة فى بيان المحسنين الذين هم أخص من المؤمنين ومن المتقين ؟

الجواب : أن الله سبحانه لم يرد هنا بيان جميع صفات المحسنين ، بل ذكر صفة لـكل أصل من أصول الخير . وأصول الخير ثلاثة : صحة العقيدة ، والاحسان الى الجماعة البشرية ، وتهذيب النفس وتطهيرها . وأكمل أمثلة تهذيب النفس الصلاة ، وأكمل أمثلة الاحسان الى الجماعة بذل المال . وفى الايمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء ، إيمان بالله سبحانه وبالـكتب المنزلة وبالرسل ، فهو مثال كامل لصحة العقيدة .

إقامة الصلاة تقويمها وتجويدها وحفظها من أن يقع فيها فساد فى صورتها أو فى حقيقتها . أما صورتها فهى الأعمال والأقوال المعروفة . وأما حقيقتها فهى الاخلاص لله سبحانه واستشعار سلطانه وقهره .

والصلاة فى الاسلام أكمل مظهر من مظاهر العبودية . وفاتحة الـكتاب إذا روعى معناها أثناء التـلاوة ، من أكبر العون على استحضار ذات المعبود متجلية بأكمل صفاتها ، ومن أكبر العون على التوحيد الخالص المبرأ من أية شائبة للشرك . وإذا خلت الصلاة من حقيقتها وروحها ـ وهو ذلك الاخلاص الذى وصفناه ـ كانت جسما لاروح فيه ، ولم تؤد الغرض منها وهو التهذيب والنهى عن الفحشاء والمنكر ، والتخاص من الهلع والجزع عند النوائب ؛ والله سبحانه يقول : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ويقول : « إن الانسان خلق هلوعا : إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين » .

والأفضل أن تفسر الزكاة هنا باخراج المـال وإنفاقه فى سبيل الله ، وفى سبيل إغاثة الملهوفين والبائسين ، وفى سد حاجة الأفراد والجماعات ، فتشمل الزكاة المفروضة وغيرها من أنواع الصدقات؛ وذلك لأن الله سبحانه يذكر فى هذه الآية أوصاف المحسنين الذين هم أكمل من المؤمنين والمتقين. وصفة الاحسان لا تتحقق بالاقتصار على الزكاة المفروضة ؛ وقد عمم الله فى صفات أهل البر عند ذكر الإنفاق فقال : « وآتى المـال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة » ، وأهل البر لا يزيدون على أهل الإحسان فى أحوالهم . والمراد بالآخرة الدار الآخرة وهى دار الجزاء .

والإيمان بالآخرة يشمل الايمان بما فيها من جنة ونار وحساب وعدل فى توزيع الجزاء

على الأعمال . واليقين اعتقاد مطابق للواقع لا يقبل الزوال أو الشك ، ويطلق باطلاق آخر على الاعتقاد الجازم المبنى على الخبر الصادق أو على الأدلة والأمارات ، فهو العلم مع تحقيق الأمر وإزالة الشك ، والثانى أقرب الى اللغة من الإطلاق الاول . اليقين يملك النفس ويصرفها حتى لا تجد عنه منصرفا ، وتظهر آثاره على الجوارح ، وأول آثار اليقين العمل به ، وأن تجد النفس مضطرة اضطرارا الى لزومه ، وطريقة النظر الصحيح وتخليص الأدلة .

والقرآن الكريم عند تدبره وشرح الصدر به يبعث فى النفوس أكمل اليقين ، وفى الجوارح أعظم آثار اليقين .

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » :

هؤلاء المحسنون الذين ذكرت أوصافهم هم المستقرون على الهدى والمتمكنون منه ، لأنهم أحسنوا فى جميع العقائد والأعمال والأقوال ، وهذبوا نفوسهم وطهروها ، وملأ اليقين قلوبهم بعد تمكنهم من الأدلة . وهؤلاء المحسنون هم الفائزون المفلحون فى الآخرة بنعيم الله وجناته ورضوانه ، وفى الدنيا بطمأنينة النفس وسعادتها والرضا بالأقدار . فهم فى نعيم روحى وإن كانوا فى الظاهر فى الشقاء ، وكل ما يصيبهم من ألم وفقر وبلاء يردونه الى القدر ، وهم راضون بالقدر فرحون ، ينتظرون جزاء الله .

وقد قيل : الهدى من الله كثير ، ولا يبصره إلا بصير ، ونجوم السماء يبصرها البصراء ، ولا يهتدى بهديها إلا العلماء .

وقد قيل أيضا : العجب كل العجب من الشاك فى الله وهو يرى خلقه ، وممن يعرف النشأة الاولى وينكر النشأة الاخرة ، وممن ينكر البعث والنشور وهو فى كل يوم وليلة يموت ويحيا ، وعجب ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور .

وصف الله المحسنين بأنهم على هدى من ربهم ، والهدى من الله سبحانه أكمل أنواع الهداية ، لأنه الهدى الذى لا خطأ فيه ، وفيه الأمان من الزيغ . وهناك ضروب أخر من الهداية ، منها هداية الإلهام والفطرة ، وهداية المشاعر والحواس ، وهاتان الهدايتان يشملان أنواع الحيوان . وهناك هداية العقل الذى يصحح خطأ الحواس ويعلل الأشياء ويستنبط ويقيس ، وهى خاصة بالإنسان ، وبها ذلل أسرار الطبيعة ، وفسر كتاب الوجود .

لكن أفضل هذه الهدايات وأقواها هى هداية الدين ، وهى لطف عظيم من الله سبحانه حيث أرشده الى ما لا يستطيع بعقله أن يدركه إدراكا صحيحا ، وأزال حيرته .

وقد بينت فى حديث من أحاديث السنين السابقة على وجه التطويل ضرورة هذه الهداية الإلهية للنوع الإنسانى ، فأكتفى الآن بهذا القدر من البيان .

وأسأل الله أن ينفعنا بالهدى الإلهى ، ويشرح صدورنا بقبوله وفهمه والعمل به ؟

السنة

زيارة القبور

واتخاذ سكانها شفعاء عند الله

- عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج » . رواه أبو داود والترمذى وحسّنه ، والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه . ذكره المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان الغرض منه إجمالا ؛ (٢) بيان التوسل بالموتى الصالحين ؛ (٣) بيان ما ذكره الفخر الرازى من تشبيه ما يفعله العامة فى الأضرحة والمزارات بعبدة الأوثان .

(١) لعل حضرات قراء هذه المجلة يذكرون ما كتبته فى الجزء السادس من المجلد الثانى عشر ، من أن البخارى روى عن عائشة رضى الله عنها ، أن أم حبيبة وأم سلمة زوجتى الرسول صلى الله عليه وسلم كانتا من بين المهاجرات إلى الحبشة فنظرتا كنيسة فيها صور فذكرتا للنبى صلى الله عليه وسلم ذلك فقال لهما : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

وهذا الحديث يؤيد الحديث الذى نشرحه الآن عن ابن عباس فى أن بناء المساجد على القبور منهى عنه نهياً شديداً ، وكما أن بناء المساجد عليها لا يجوز فكذلك زيارتها لا تجوز للنساء ، وتجوز للرجال لغرض واحد وهو تذكر الآخرة . وقد يقال : إن النساء أيضا قد يتذكرن الآخرة بزيارة القبور . ولكن الشريعة الاسلامية مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد . ولما كانت القبور غالبا فى أمكنة لا يتيسر معها عدم اختلاط النساء بالرجال كان من صيانة النساء أن يمنعن عن كل ما يمس صيانتهن . ولذا أجاز بعض الأئمة للمرأة العجوز التى انقطع منها أرب الرجال أن تخرج الى المصلى وأن تزور المقابر . وعلى كل حال فالعلة فى جواز الزيارة هى تذكر الآخرة وليس وراءها شىء آخر . أما الذين يزورون الأضرحة وقبور الصالحين الآن فان كانوا يقصدون المعنى الذى صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم

فهم يثابون على زيارتهم ؛ وأما إن كانوا يريدون شيئا وراء ذلك من قضاء حاجة ، ويعتقدون أن الموتى الصالحين يتصرفون فى الاعطاء والحرمان ، فذلك لا يجوز باجماع المسلمين . وهذا هو الذى سنبين لك حكمه فى الأبحاث الآتية .

٢ — أما التوسل بالموتى الصالحين فذلك محل خلاف بين المسلمين ، فمنهم من أجاز ، ومنهم من منع . وعلى كل حال فالجميع متفق على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد ، وأن التوسل إليه بالصالحين لا يؤثر فى قضائه وقدره . فمن أجاز الوسيلة قال إنها من باب الأسباب العادية التى أمر الله بالتمسك بها فى كثير من الآيات والأحاديث ، وكونها تؤثر أو لا تؤثر مسألة أخرى ترجع الى ربط الأسباب بالمسببات . أما من منع فانه يقول إن الله سبحانه وتعالى قد بين الأسباب والمسببات ؛ فالأحياء الذين يقطعون معترك الحياة الدنيا لا بد لهم من أن يستعين بعضهم ببعض ، ولا بد لهم من أن يتضافروا على قضاء حاجاتهم الدنيوية ، ومحال أن يستغنى الناس عن هذا التعاون ، وقد أمر الله تعالى به فى كتابه العزيز حيث قال : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . هذا فى حال الحياة ، أما بعد الموت فما هو ذلك التعاون الذى لا بد منه ؟ ليس فى الدين ما يصرح أو يشير الى هذا التعاون ، وليس فيه ما يفيد أن الأحياء يجب عليهم أن يتوسلوا الى الله بالأموات ، بل بالعكس ، ظاهر الأحاديث وظاهر الدين يدل على الالتجاء الى الله وحده ، وأنه لا يجوز اتخاذ أهل القبور وسيلة الى الله تعالى فى قضاء الحوائج ، وهذه الأحاديث التى معنا تدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى النساء عن زيارة القبور وأباحها للرجال لتذكر الآخرة ، ولو كان التوسل بهم جائزا ما منع منه فريقا عظيما من أمته .

ومن هذا يتبين أن علماء المسلمين اختلفوا فى شىء لا يمس جوهر الدين ، ولا يمس عقيدة من العقائد الأساسية ، بل هم مجمعون على أن النفع والضر يرجعان الى الله وحده ، وإنما الخلاف بينهما فى كون التوسل سببا صحيحا يقره الدين أو لا ، فيكون التوسل عبثا لا فائدة منه . فهذا خلاصة ما قاله العلماء فى هذا المقام ، ذكرناه بإيجاز ليسهل على الناس إدراكه ولا يتنازعوا فيما لا يضرهم ولا ينفعهم . ولكن محل الاشتباه حقا هو ما سنذكره فيما يلى :

(٣) إن العامة قد تخطوا حدود الدين فى هذا المقام الى أبعد مدى ، فأخذوا يأتون من ضروب المنكرات ، كتقبيل الأحجار والأعتاب ، وتقديم الذبائح والنذور للأضرحة وسكان القبور ، والطواف حول المزارات المبتدعة المصنوعة من النحاس والخشب ونحو ذلك على الوجه الذى كان يفعله عبدة الأوثان والأصنام قبل الاسلام تماما . ومن الأسف الشديد أنهم وجدوا لهم أعوانا من بعض الخاصة الذين لهم أغراض مادية أو مصالح شهوية ، فعضدوا هؤلاء الخوارج على دين الله حتى أصبح ذلك دينا قيما فى نظر هؤلاء الجهلة ، وأصبح من يرشدهم الى الدين

الصحيح خارجا على الدين فى نظرهم . وكفاهم مستندا ما يفعله بعض الخاصة من جمع حطام الدنيا ، وما وجدوا عليه آباءهم من قبل ، كأن قواعد الدين الاسلامى وآياته محدثة لم تكن معروفة لأحد من قبل ، وهذا هو الشر الوبيل والخطر الداهم الذى عم شره .

إن الدين الاسلامى قد جاء بتوحيد الإله الخالص الذى لا شائبة فيه من أى ناحية من النواحى ، كما جاء لمحاربة الوثنية والقضاء عليها حيث كانت وأنى وجدت ، وقد أظهر الله تعالى دينه القيم الذى تقتضيه الفطرة الانسانية من عبادة إله كامل منزه عن المادة والحلول والاتحاد بأى مادة من المواد ، فهو سبحانه ليس كمثله شىء ، ولا هو مثل شىء ، وهو وحده المتصرف المطلق فى عباده ، فهو الذى يبسط الرزق لهم ، وهو الذى يمنعه إذا شاء ، وبذلك طهر شبه جزيرة العرب وما يتصل بها من الوثنية التى أضلتهم زمانا طويلا فعبدوا الأصنام والأوثان من دون الله الواحد القهار بدون أن يفكروا أو يتدبروا فيما يحيط بهم من أسرار الكائنات ودلائل الآيات الناطقة بأن عبادة وثن أو صنم أو التوسل به الى الله سخف وهراء لا ينبغى لعاقل أن يفعله .

هذه قواعد الدين وهذه أحكامه ، فهل لعلماء المسلمين وأئمة الدين أن يتضافروا على محاربة هذه الموبقات التى نهى عنها الدين الاسلامى نهيا صريحا ، ويقتدوا فى ذلك بسلفهم الصالح الذى كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر مهما لاقى فى سبيل ذلك من عنت وإيذاء ؟

إن هذه العقائد الفاسدة قد أثرت على بعض المتعلمين ، فكتب لى أحدهم يقول : « لقد انتابتنى فى هذه الأيام أفكار متعارضة وآراء متناقضة أخشى أن يذهب دينى ضحيتها إن لم تدركنى بإرشادك القيم وتهدنى ببيانك الى الصراط المستقيم » ، ثم قال : « قرأت فى تفسير الفخر الرازى عند قوله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ما ملخصه أن الفخر قال أوجها منها : أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله . قال : ونظيره فى هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاءلهم عند الله ... الى آخر ماذكره . ولست أدرى سببا لاضطراب هذا الكاتب والخوف على دينه من مثل هذه المسألة ، لأنه ماذا يضيره إذا اعتقد أن ما يفعله الناس من تقبيل الأحجار ، وتعظيم القبور لا يقره الدين الاسلامى ؟

وأى مذهب من المذاهب يبيح هذه المسائل ؟ وما دامت محرمة فى جميع المذاهب فلماذا يضطرب من عبارة الفخر ؟ إن كان يظن أن الفخر قد حكم عليهم بأنهم مشركون فعلا فانى أقول له : كلا ، إنهم ليسوا بمشركين ، وإنما يعملون ما يشبه عمل المشركين ، والفرق بينهم وبين المشركين أن عبدة الأوثان والأصنام كانوا ينكرون البعث والنشور ، كما قال تعالى : « وأقسموا

بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ـ الآية » وقال تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .
أما العامة فهما فعلوا فهم موحدون مؤمنون بالبعث والنشور ، فإذا أنكر أحد ذلك فقد تساوى مع المشركين الأولين الذين كانوا يعبدون الأوثان لتقربهم الى الله زلفى فتدر عليهم الارزاق والبركات فيأكلون ويتمتعون فى هذه الحياة الدنيا كما تأكل الأنعام وهم عن الآخرة هم غافلون .

وأظن أن فيما كتبناه للأستاذ الحائر المضطرب ما يقنعه بأن هناك فرقا بين المسألتين ، وإن كان ما يفعله العامة محرما بإجماع المسلمين ولا يليق إقرارهم عليه ، بل ينبغى لكل عالم أن يحارب هذه البدع والموبقات ؟

عبد الرحمن الجزيرى

العطية قبل السؤال

إنما جعلنا أكثر طرفنا فى هذا الشهر ، فى البذل والعطاء ، لأن رمضان شهر الإحسان ، والإكثار من ذكره يلفت القلوب اليه .

سأل معاوية صعصعة بن الصوحان : ما الجود ؟ فقال : التبرع بالمال ، والعطية قبل السؤال .

ومن قول إمام الأدب ابن عبد ربه صاحب العقد فى هذا المعنى :

كريم على العلات جزل عطاؤه ... ينيل وإن لم يعتمد لنوال
وما الجود من يعطى إذا ماسألته ... ولكن من يعطى بغير سؤال

وقال سعد بن العاصى : قبّح الله المعروف إن لم يكن ابتدئ من غير مسألة ! فالمعروف عوض عن مسألة الرجل إذا بذل وجهه ، فقلبه خائف ، وفرائصه ترعد ، وجبينه يرشح ، لا يدرى أيرجع بنجح الطلب ، أم بسوء المنقلب ؛ قد انتقع لونه ، وذهب دم وجهه ؛ اللهم فان كانت الدنيا لها عندى حظ ، فلا تجعل لى حظا فى الآخرة !

وقال على أمير المؤمنين لأصحابه : من كانت له الىّ منكم حاجة ، فليرفعها فى كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة .

ومن أحسن ما قيل فى هذا المعنى قول أبى تمام :

عطاؤك لا يفنى ويستغرق الثنا ... وتبقى وجوه الراغبين بمائها

حول السيرة المحمدية

تابع لما قبله

قد يقول قائل : هذا شأن اليهود ونحن إنما نتكلم عن المسيحيين فأين هذا مما نحن فيه ؟ والجواب : أن المسيحيين يعتقدون بالتوراة فعلمهم بها كعلم اليهود ، ويزيدون عن اليهود بما جاء فى الإنجيل .

٧ — قال الله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (سورة البقرة) .

وهذه الآية الكريمة غنية عن التعليق لإفادة أن أهل الكتاب كانوا على يقين من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كانوا يكتمون الحق وهم يعلمون أنه الحق .

٨ — روى البخارى فى صحيحه ص ١٩٦ ج ١٦ قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه (يباهلاه) ، فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . ويوضح هذا الحديث ما ذكره الإمام القرطبى عند الكلام على قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » الى قوله تعالى . « فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » قال : إن هذه الآيات نزلت فى وفد نجران لما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم من أبو عيسى ؟ فأنزل الله تعالى إن مثل عيسى عند الله الآيات ، فدعاهم النبى صلى الله عليه وسلم الى المباهلة فأحجموا وخافوا ، وقال بعضهم لبعض إن باهلتم اضطرم عليكم الوادى نارا . . فقل لى بربك هل كان هذا الخوف وهذا القول منهم لأنهم كانوا يعتقدون أن محمدا كذاب إذ لا نبى بعد عيسى ، وأن الديانة قد تمت فى نظرهم ، أو بالعكس ، وأن هذا ماحصل إلا لأنهم كانوا يعتقدون أو يغلب على ظنهم أو يجوزون على الأقل أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقا ؟ ويلزم كل هذه الاحتمالات أنهم كانوا لا يعتقدون أن الديانة قد تمت ولا استحالة نبى آخر بعد عيسى عليه السلام . قال الامام القرطبى : هذه الآية علم من أعلام النبوة لأنه دعاهم الى المباهلة فأبوا ورضوا بالجزية

٩ — قال الله تعالى : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم

تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » الى آخر الآيات ، فما حكاه القرآن عن فريق منهم فى هذه الآيات لا يتفق مع زعم أنهم كانوا يعتقدون تمام ديانتهم وأنه لا نبى بعد عيسى عليه السلام .

وقد ناقش الأستاذ فى دلالة هذه الآية على مدعانا قال : وأما قوله تعالى : وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول الآية ، فهو صريح فى أن الذين فاضت أعينهم بالدمع كانوا قد آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم من قبل وآمنوا بالقرآن ، فلا عجب أن ترق قلوبهم عند سماعه فيبكوا ، وليس هذا بعجيب من قوم تذوقوا طعم اليقين اهـ .

وبناء على ذلك يكون قوله تعالى : ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الى قوله : وأنهم لا يستكبرون ، فى حق النصارى ، وقوله تعالى : وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول الخ فى حق المسلمين ، فهل سمعتم أيها القراء بتفسير أعجب من هذا ؟ فالعارف بالذوق البلاغى ، وفى مقدمتهم الأستاذ ، يجزم بأن الضمير فى قوله تعالى : وإذا سمعوا ، عائد لما عادت عليه الضمائر السابقة وهم الذين قالوا إنا نصارى ، وأن قوله تعالى : وإذا سمعوا معطوف على قوله تعالى : لا يستكبرون ، فالمرجع واحد ، والمحدث عنه متحد ، وهم الذين قالوا إنا نصارى . أما ما ذهب الأستاذ اليه فانه يلزم عليه تشتيت الضمائر واختلال النظم . والذى دعا الأستاذ الى كل هذا التكلف ما فهمه وحرص عليه من أنه لم تكن لأهل الكتاب معرفة بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، وقد علمت ما فيه .

ثم قد وقع الاختلاف بين المفسرين فى القوم المرادين بهذه الآيات بعد إجماعهم على أنها كلها خاصة بقوم من النصارى ؛ قال العلامة القرطبى ص ٢٥٥ ج ٦ : وهذه الآية نزلت فى النجاشى وأصحابه لما قدم عليهم المسلمون فى الهجرة الأولى ، الى أن قال : ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين وأرسل الى الرهبان والقسيسين فجمعهم ، ثم أمر جعفرا أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم ، وقاموا تفيض أعينهم من الدمع ، فهم الذين أنزل الله فيهم : ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى الى قوله الشاهدين ، رواه أبو داود . وذكر البيهقى عن ابن إسحاق قال : قدم على النبى صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا أو قريب من ذلك من نصارى الحبشة ، وهو بمكة ، حين ظهر أمره فوجدوه فى المسجد فكلموه وساءلوه ، ورجال قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألتهم عما أرادوا دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتبهم من أمره ، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقالوا : خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تظهر مجالستكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، ما نعلم ركبا أحمق منكم ! فقالوا سلام عليكم لا نجاهلكم فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا نألو أنفسنا خيرا . ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران . ويقال إن فيهم نزلت هذه الآيات

أيضا : الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، الى قوله تعالى : سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين. وقيل إن جعفرا وأصحابه قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا فيهم اثنان وسبعون من الحبشة وثمانية من أهل الشام (وذكر أسماءهم) فقرأ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم سورة يس الى آخرها فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى ، ونزلت : لتجدن أشدالناس عداوة للذين آمنوا الآيات . وقال سعيد بن جبير : وأنزل الله فيهم : الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، الى قوله تعالى : أولئك يؤتون أجرهم مرتين الى آخر الآية . وقال مقاتل والكلبي : كانوا أربعين رجلا من نجران من بنى الحارث ، واثنان وثلاثون من الحبشة ، وثمانية وستون من أهل الشام .

- وهذا الخلاف فى تعيين القوم المرادين بالآيات الكريمة لا يعنينا فى كثير ولا قليل ، إنما يعنينا القدر المتفق عليه وهو أن هذه الآيات برمتها نزلت فى قوم من النصارى ، كما أنه يؤخذ منها أن كثيرا من النصارى كانوا قد أسلموا . إذن فقد كان من النصارى ناس يبكون ويؤمنون بمجرد سماع القرآن إذ يعرفون أنه الحق طبقا لما كان فى كتبهم ، وكذلك قد كان من اليهود كما مر ، ولكنهم كانوا قلة بجانب من كان يسلم من النصارى .

وهذه ليست صفة ذم كما يقول سيدى الأستاذ ، فإن سرعة الانقياد الى الحق إذا بهر والدليل إذا ظهر من أجلّ الصفات وأسمى المناقب ، وقد ذم الله تعالى قوما بأنهم يجادلون فى الحق بعد ما تبين ، وكان أبو بكر رضى الله عنه أسرع الناس تصديقا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك مدحه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ما دعوت أحدا الى الاسلام إلا كانت له نبوة غير أبى بكر . فالمسارعة الى قبول الحق منقبة أى منقبة ، سيما وهؤلاء القوم لم يكونوا خالى الذهن كما قد يتوهم بل كانوا على علم تام بأمر النبي صلى الله عليه وسلم كما سبق تحقيقه ، فلم يكونوا بحاجة الى أكثر من أن يطبقوا ما شاهدوا على ما كانوا يعلمون . وقد كانت شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ناهيك بها من شخصية ، إنها توحى الى ذوى البصائر النيرة بصدقه . ولقد رآه بعض الناس مرة واحدة فقال : والله ما هذا بوجه كذاب . ولقد رآه رجل من أهل اليمن وهو صغير فقال لقريش : إن هذا الغلام لينظر إليكم أحيانا بعينى جؤذر وأحيانا بعينى أسد ، فلو كانت نظرته الأولى نسيما لأنشرت موتاكم ، ولو كانت نظرته الثانية سهاما لأتت عليكم واحدا واحدا . وتأثير القرآن وما أدراك ما تأثير القرآن ؟ إنه مغناطيس القلوب الطاهرة ، والنفوس الحساسة ، والضمائر الحرة ، وكيف لا ؟ ألم يقل الله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » وألم يقل الله تعالى فى صفة القرآن العظيم : « مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » ؟

ولقد ذهب الوليد بن المغيرة الى النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عليه أمورا فى نظير الـكف عن دعوته وعيب آلهتهم ، فلمـا فرغ من كلامه ، قال له النبي صلى الله عليه وسـلم : اسمع ، ثم تلا عليه أول سورة فصلت الى قوله تعالى : « فان أعرضوا فقل أنذرتـكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأمسك الوليد بفيه وناشده الله والرحم ، ثم رجع الى قريش ، فلما رأوه من بعيد قالوا : والله لقد جاءكم الوليد بوجه غير الذى ذهب به . فانظر وتأمل بعض آيات سمعها الرجل وهو لا يزال على كفره تؤثر فيه هذا التأثير المحسوس الذى يرى على وجهه من بعيد ! ثم مدح الوليد القرآن فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليغلب وما يغلب ، وما هو بقول البشر ! ولقد قرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم على ملأ من قريش فسحرهم البيان ، وأخذت بمجامع قلوبهم قوة الاعجاز ، وأنستهم حقدهم الدفين ، بل أنستهم أنفسهم حتى إنه لما وصل الى آخرها وسجد ، لم يتمالـكوا أنفسهم فسجدوا جميعا ، فطار الخبر الى مهاجرى الحبشة بأن قريشا قد أسلمت ، فرجعوا الى مكة ، ولـكنهم وجدوا قريشا كما كانت بل أشد عنادا وكفرا . وإذا كان هذا تأثير القرآن على هؤلاء القوم وهم فى أشد درجات الـكفر والعناد ، فـكيف تأثيره على القلوب المستعدة لقبول الهداية بفطرتها ؟ نعم إن التريث ممدوح ولـكن فى مواطن الريبة . وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » مما يرشد الى ذلك .

إيراد سهل الايراد :

قد يقال : إذا كان المسيحيون أقرب مودة للمسلمين من اليهود والمشركين ، فـكيف نعلل ما حصل بين الفريقين من الحروب الطاحنة ، وكيف دخلت أمم برمتها فى الاسلام بخلاف النصارى ؟ والجواب عن الشق الأول لن يحتاج إلا الى لفت النظر الى ما هو حاصل الآن بين الأمم المسيحية من الحروب الطاحنة مع أنهم من ملة واحدة ، بل إن الصحابة أنفسهم قد وقعت بينهم حروب . وأما عن الشق الثانى فان مسألة الايمان لها ظروف وأسباب وملابسات شتى ، مثل التغلب النهائى على الأمة الفارسية ، وامتزاج المسلمين بهم ، وكذلك الامتزاج الـكلى الذى حصل بين الأمة العربية والأمة التركية .

وبعـد إثبات ذلك الأصل المتقدم تنزاح تلك التشكيكات التى أوردت على ما حصل من ملوك النصرانية .

ويحسن بنا أن نبدى بعض ملاحظات على ما كتبه الأستاذ بشأن قصتى هرقل والنجاشى :

أما قصة هرقل مع أبى سفيان وصحبه فقد رواها البخارى فى صحيحه فى جملة مواضع

عن ابن عباس عن أبى سفيان ، وليس عن ابن الناطورى . وكذلك رواها الإمام مسلم فى صحيحه والبيهقى ، وفى آخرها يقول هرقل لأبى سفيان : لئن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ... فقل لى بربك أى غرابة أو خرافة فى هذا؟ وأى قاعدة من علم النفس أو علم الاجتماع تمنع من أن يقع فى خاطر هرقل من صدق النبى صلى الله عليه وسلم مثل ما وقع فى قلب الفتاة الانكليزية أمة الله بار ، أو اللورد هدلى ، أو القس طيلر ، وغيرهم من ناضجى العقول وأحرار الأفكار ؟ والله إن هذا ليس ببدع ، بل البدع أن ينكص على عقبيه ويؤثر الفانية على الباقية بعد الذى قدمناه من الأدلة . على أنه كان على يقين من أمر النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان من أكابر علمائهم .

هذا وقد أراد الأستاذ أن يتخلص من إنكارى عليه تكذيب صحيح البخارى فأورد ملاحظتين لا محل لهما : أولاهما أنه ليس كل ما ورد فى كتاب البخارى من آرائه الشخصية وتعليقاته يسرى عليه ما يسرى على ما أورده من الأحاديث مسندا الى النبى صلى الله عليه وسلم . والثانية أن ماروى عن ابن الناطورى ليس بحجة لأن ابن الناطورى ليس بثقة فى نظره ولا فى نظر أحد من المسلمين . وإنما قلنا هاتين الملاحظتين لا محل لهما لأن الحديث الذى أنكرنا تكذيبه وهو قصة هرقل مع أبى سفيان كما قلنا ذلك بصريح العبارة ليس من تعليقات البخارى ولا من آرائه الشخصية ولا هو مروى عن ابن الناطورى ، وإنما هو مروى عن عبد الله بن عباس عن أبى سفيان فهو صحيح الاسناد ، فاعتراضنا فى ناحية وجوابه فى ناحية أخرى لا تلاقى بينهما بوجه من الوجوه .

وقد ذكر الأستاذ أن الأحاديث المروية كلها ليست بمنجاة من النقد ، وقد سمح الأئمة السابقون لأنفسهم بنقد كل شىء فيه ، فضعفوا مائة وعشرين حديثا من الأحاديث المروية فيه . ونحن نوافقه على هذا المبدأ الجليل ، ونصرح بأن الامام البخارى ليس معصوما لاهو ولا غيره من الأئمة ، وأنه عرضة للنقد ، وأنه لا عبرة بكلام غير النبى صلى الله عليه وسلم إلا بالحجة والبرهان ، وهذا مجمع عليه ؛ وقد روى عن الامام مالك رضى الله عنه : ما من أحد إلا ويؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ، يريد النبى صلى الله عليه وسلم . وروى عن الامام الشافعى رضى الله عنه : إذا رأيتم كلامى يخالف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوا بالحديث واضربوا بكلامى عرض الحائط . ومثله عن الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه . وبالجملة فهذا قدر متفق عليه ، ويدل على سماحة الاسلام وإعطائه العقل منتهى الحرية ما دامت فى حدود المعقول .

ولكن نقد الأحاديث له طريقتان : الأولى ببيان حال رواته من الضعف ، وهذا إنما يكون من الأئمة المعاصرين لهم العارفين بأحوالهم ؛ والثانية ببيان أن الحديث مصادم لحكم

العقل بالدليل المنطقي ، ولا شيء منها يتعلق بالحديث الذي نحن بصدده ، وقد مضى على هذا الحديث قرابة ثلاثة عشر قرنا ولم يطعن فيه أحد بمخالفته المعقول ، بل المخالف للمعقول ألا يقع في قلب هرقل صدق النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما قدمناه من الأدلة على أنه كان على علم ببعثته ، وبعد تلك الأسئلة الدقيقة وأجوبتها من أبي سفيان وهو يعلم أنه ألد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، فالتشكيك في هذا بأن النصارى كانوا شديدي التمسك بدينهم ، ويعتقدون تمامه ، وأنهم كانوا يعلقون آمالهم في حماية دينهم على الدولة الرومانية الشرقية ، لا يقام له وزن لأنه تشكيك في مقابلة قاطع الأدلة .

بقي أن الأستاذ ذكر جملة غير مفهومة عندي، وهي قوله : « وقد ظن بعض الناس أن البخاري روى ما قاله عن هرقل عن الزهري عن عبيد الله عن عبد الله بن عباس عن أبي سفيان ، والواقع أنه روى خبر سؤال هرقل لأبي سفيان بهذا الإسناد ، وقد شاركه فيه مسلم » . فهذه الجملة متضاربة ، لأن آخرها يفيد أن خبر مساءلة هرقل لأبي سفيان ومجاوبة أبي سفيان له التي انتهت بقول هرقل : فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج الخ ، مروي بهذا الاسناد ، بينما أولها ينفي ذلك .

هذا ولا بد لنا من كلمة على ما روي عن ابن الناطوري ، فابن الناطوري إما أن يكون قد أسلم كما ذكره ابن حجر في فتح الباري ، وأن الزهري لقيه في خلافة عبد الملك بن مروان ، أو يكون قد بقي على كفره ؛ فان كان الأول فالأمر ظاهر ، ولا شك في قبول روايته ، وإن كان الثاني فهو إنما شهد للاسلام لا عليه ، فشهادته للاسلام ليست موضع ريبة حتى تشترط فيها العدالة ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

أما مسألة إسلام النجاشي فالأستاذ كفانا فيها المؤونة ، ذلك أنه اعترف معنا بأن نجاشيا أسلم وأنه غير النجاشي الذي أرسل إليه كتاب الدعوة ، ثم قال : وهذا لا يمنع أن يكون سالف هذا النجاشي قد أسلم سرا ، وأرسل الى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره بذلك خفية وكتم إسلامه عن قوله . إذن فالأستاذ يجوز أن يكون السلف قد أسلم سرا ، أي وأما الخلف فقد أسلم جهرا ، وهذا فيه الكفاية ، لأننا لم ندع إلا إسلام نجاشي واحد ، فأثبت لنا إسلام نجاشيين اثنين ، وكون الأول أسلم سرا أو جهرا لا يعنينا ، إنما الذي يعنينا إسلام النجاشي الذي نأخذ منه أن النصارى لم يكونوا يعتقدون أن ديانتهم قد تمت بتجسد الابن بل كانوا يعتقدون مجيء نبي آخر ، وأنه مبشر به في كتبهم ، ولذلك افترق الحال بين رد ملوك المسيحية ورد كسرى الذي مزق كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بأن يمزق الله ملكه ، وقد كان .

وأما كون كتاب النجاشي ركيك العبارة غير مستقيم الأسلوب ، فهو عندنا دليل على صحته لا على اختلاقه ، وهل زعم أحد أن النجاشي تربى في بادية بني سعد حتى نشأ على الفصاحة والبلاغة ،

أو تربى فى كلية السربون ؟ أو جامعة أوكسفورد ، حتى تعلم تنميق العبارة وحسن السبك فى الخطاب ، فالرجل ساذج ، وخطابه فطرى ، وإيمانه فطرى أيضا .

ونختم هذا المقال بهذه الآية الكريمة : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » ؟

محمد عبد الله الجوهرى

تعقيب على هذا التعقيب

عهدنا عهد شك وتمحيص ، وقواعد للنظر مستمدة من الواقع المحسوس ، ثم هو عهد ثقافة عامة سرت فى جميع الطبقات ، ومعرفة شاملة بالأحوال والشئون العالمية ؛ والجماعات التى تعيش فى مثل هذا العهد يغلب عليها المزاج الفلسفى الحسى فيما يتعلق بالدين والآداب ، أكثر مما تتغلب عليها الغرائز الأدبية للنفس البشرية ؛ فالفيلسوف الذى تحترمه هذه الجماعات وترجو الاستهداء به ، هو الحسى الواقعى الشكاك العنيف ، الذى لا يقيم للعاطفة وزنا ، وينظر للأشياء بمنظار معظم يبين كل ما فيها من عيوب . أما فى الأدب ، ولا بد للأمم من أدب ، فالميل العام منصرف الى اختيار أدب الواقعيين المتشائمين ، الساخطين على الحياة ، والساخرين بالوجود .

أراد الله أن نكون من أهل هذا العهد ، وأراد أن نكون من العاملين فيه على خدمة أمتنا من الناحيتين العقلية والقلبية معا ؛ فأول ما يجب علينا أن نتذرع به ، إذا أريد لنا أن ننجح ، أن نعرف روح هذا العصر ، وأن نكون نحن قد تأثرنا بها ، وأدركنا قوة سلطانها ، وترشحنا بذلك الى معرفة عوامل تأثيرها فى الجماعات .

هذا عصر وُضع كل شىء فيه فى الميزان ، حتى الكتب السماوية ، والعقائد الأولية ؛ وارتاب العقل فى كل مروى حتى فيما أجمعت عليه أمم برمتها آلافا من السنين ؛ ثم هو عصر أصبح فيه من يخالف روحه التى وصفناها تسقط قيمته ، ويعد فى زمرة المعطلين . فعصر مثل هذا تعتبر فيه مهمة إيقاظ العاطفة الدينية من أشق المهام ، وأفدحها تبعات .

كان من سبقنا من أهل العلم إذا أرادوا أن يتكلموا فى أمر من أمور الدين ، شعروا أنهم وسط جمهور مشبع بروح الاعتقاد ، والتطلع للسماع ، والرغب فى المزيد ، يحيط بهم

أو تربى فى كلية السربون ؟ أو جامعة أوكسفورد ، حتى تعلم تنميق العبارة وحسن السبك فى الخطاب ، فالرجل ساذج ، وخطابه فطرى ، وإيمانه فطرى أيضا .

ونختم هذا المقال بهذه الآية الكريمة : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » ؟

محمد عبد الله الجرهنى

تعقيب على هذا التعقيب

عهدنا عهد شك وتمحيص ، وقواعد للنظر مستمدة من الواقع المحسوس ، ثم هو عهد ثقافة عامة سرت فى جميع الطبقات ، ومعرفة شاملة بالأحوال والشئون العالمية ؛ والجماعات التى تعيش فى مثل هذا العهد يغلب عليها المزاج الفلسفى الحسى فيما يتعلق بالدين والآداب ، أكثر مما تتغلب عليها الغرائز الأدبية للنفس البشرية ؛ فالفيلسوف الذى تحترمه هذه الجماعات وترجو الاستهداء به ، هو الحسى الواقعى الشكاك العنيف ، الذى لا يقيم للعاطفة وزنا ، وينظر للأشياء بمنظار معظم يبين كل ما فيها من عيوب . أما فى الأدب ، ولا بد للأمم من أدب ، فالميل العام منصرف الى اختيار أدب الواقعيين المتشائمين ، الساخطين على الحياة ، والساخرين بالوجود .

أراد الله أن نكون من أهل هذا العهد ، وأراد أن نكون من العاملين فيه على خدمة أمتنا من الناحيتين العقلية والقلبية معا ؛ فأول ما يجب علينا أن نتذرع به ، إذا أريد لنا أن ننجح ، أن نعرف روح هذا العصر ، وأن نكون نحن قد تأثرنا بها ، وأدركنا قوة سلطانها ، وترشحنا بذلك الى معرفة عوامل تأثيرها فى الجماعات .

هذا عصر وُضع كل شىء فيه فى الميزان ، حتى الكتب السماوية ، والعقائد الأولية ؛ وارتاب العقل فى كل مروى حتى فيما أجمعت عليه أمم برمتها آلافا من السنين ؛ ثم هو عصر أصبح فيه من يخالف روحه التى وصفناها تسقط قيمته ، ويعد فى زمرة المعطلين . فعصر مثل هذا تعتبر فيه مهمة إيقاظ العاطفة الدينية من أشق المهام ، وأفدحها تبعات .

كان من سبقنا من أهل العلم إذا أرادوا أن يتكلموا فى أمر من أمور الدين ، شعروا أنهم وسط جمهور مشبع بروح الاعتقاد ، والتطلع للسماع ، والرغب فى المزيد ، يحيط بهم

جو من حسن الظن والتسليم المطلق ؛ ولكن خلفاءهم اليوم يشعرون بتحول عظيم لهذه الحالة النفسية ، وإن لم يجرؤ الناس هنا على إظهارها كما تظهر فى البلاد الغربية ، وإنما ينم عليها عدم الاكتراث بالمتكلمين فى هذه الشئون ، بل عدم سؤالهم عما يحيك بالصدور من شتى الشبهات ، يأسا من سماع ما تطمئن اليه نفوسهم ، واعتقادا بأنهم فى مروقهم أهدى من مرشديهم سبيلا ، وأقوى فى إلحادهم دليلا .

والمهمة التى أشعر بأنى مطالب بأدائها فى هذه المجلة ، هى تنبيه العاطفة الدينية فى القلوب بالأصول نفسها التى كانت سببا فى إخمادها ، لا بهدم تلك الأصول ، والتدليل لها على فسادها ، بعد ما أصبحت أصولا مقررة للفلسفات عامة وللعلوم كافة ، وبعد ما دُعيت بالمنطق العلمى ، وبلغت درجة الخلود .

ليس مرادنا من تقديم هذه الكلمات الدعوة الى إهدار شىء من مقرراتنا الاسلامية ، لإيجاد الصلح المرغوب فيه بين المحافظين والأحرار منا ، فانى منذ درست الاسلام على ضوء العلوم الحديثة أدركت أن السبب فى سوء ظن الأحرار بالدين هو عدم معرفتهم كنه الاسلام على وجهه الصحيح ، من ناحية ، ومبالغة المحافظين فى تجاهل المنطق العلمى الحديث ، والروح الثقافية العامة السائدة على العقول ، من ناحية أخرى .

إن الذى جعل للعلم الرسمى هذا السلطان العظيم على العقول ، حتى تخلت فى سبيله عن الدين ، هو أنه عامل باخلاص على إدراك الحقيقة على ما هى عليه ، لا يهمه أن تكون على لون دون لون ، ولا أن تنصر رأيا على رأى . فلا سبيل لإنالة الدين مثل هذا السلطان على العقول فى هذا العصر ، إلا إذا وضع قادته نصب عيونهم أن يجعلوا أسلوبهم فى الايصال الى الحقيقة الدينية ، أقوم من أساليب العلم ، وآلاتهم فى معالجة المسائل تحليلا وتركيبا أدق من آلات العلم ، وغيرتهم على المحافظة على هذه الطريقة أشد من غيرة رجال العلم . بهذا ، بل بهذا وحده ، يخدم الدين فى عهدنا الذى نعيش فيه ، وهو وإن كان كثير التبعات على العاملين ، فإنه أرقى العهود البشرية جميعا فى تقرير الحقائق بعيدة عن جميع الملابسات ، وهو جدير بأن تتقرر فيه اليقينيات الكبرى التى قبلها العلم فى حظيرته ، ولا تزال بعيدة عن مرمى بصر الدهماء .

هذه مقدمة قد يراها بعضهم طويلة ، ولكنها ضرورية وهذا وقتها .

فلننظر الآن فى ملاحظات الأستاذ فى الشطر الأخير من مقاله :

عاد فضيلة الأستاذ فى هذا الشطر أيضا الى التأكيد بأن النصارى كانوا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم كما يؤمن به اليهود لأن الطائفتين تقدسان التوراة ، وفى التوراة البشارات . وقد أوردنا فى ردنا على الشطر الأول رأى إمام المفسرين الرازى فى أن هذه البشارات لا تكفى فى تكوين هذه المعرفة . واستشهد الأستاذ بامتناع نصارى نجران عن المباهلة ، على أنهم كانوا

يعرفون أنه نبي تخشوا أن يصيبهم الله بشؤم ما صنعوا ، وآثروا على ذلك أن يفرض النبي عليهم الجزية ، والجزية إذلال ، ومضيعة للاستقلال ، فكيف يعقل أن يخضعوا للذل وإضاعة الاستقلال ، ولا يعترفوا بالنبوة لمحمد ، وهي عقيدتهم القلبية ؟ وهل بقوا في نظر أنفسهم مسيحيين مع عصيانهم الصريح للبشارة التي وردت عنه في كتبهم ؟ وفي مقابل أي شيء رضوا بالذل وإضاعة الحرية ومصارحة كتبهم بالعصيان الى هذا الحد ؟

اللهم إني لا أعلم لذلك مقابلا ، ولذلك لا أعقل أنهم كانوا مؤمنين به في قلوبهم ، وكافرين به في ظاهرهم ؛ وعندي أن قوله تعالى : « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » يشير الى فئة من اليهود كانوا يعرفون أنه نبي ، فكتموا إيمانهم حفظا لمكاناتهم ، ثم أخذوا يؤلبون عليه العرب واليهود معا . ومما يساعدني على هذا الفهم قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » . فاتهم بكتمان الحق فريقا ولم يتهم الفريق الآخر ، لأنهم كانوا آمنوا ؛ والمراد بأهل الكتاب أهل الحل والعقد منهم ، الذين يستطيعون النظر والاستدلال ، لا جمهرة الشعب ، بدليل أنهم في حروبهم مع المسلمين سيموا الخسف ، وكلفوا الجلاء والتجرد من المال والعتاد ، بل قبلوا القتل ، ولم يشهدوا للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة ؛ ومثل هذا العناد الجنوني لو عقل صدوره من رجل أو رجلين ، فلا يعقل صدوره من شعب برمته ، فيسلم آحاده أعناقهم للسيف وهم يرون نساءهم وولدانهم يولولون حولهم ، ولا يلفظون بألسنتهم ما يعتقدونه في صميم أفئدتهم !

هذا غير معقول ، وكل غير معقول يؤول في سبيله النص كما هي القاعدة الأصولية في الاسلام ، فما ظنك بما ليس فيه نص محدود ؟ ونحن في موضوع السيرة المحمدية بسبيل إظهار مكانة الاسلام من تمحيص الحقائق ، وتصفية المسائل ، إحلالا له في محله من القلوب والعقول .

وقد حاول الأستاذ دحض ما قلته في معنى قوله تعالى : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ، فأورد الأستاذ خلاصة تفسيري لهذه الآية وهو : « إن الذين فاضت أعينهم بالدمع هم النصارى المذكورون في أول الآية ، وقد آمنوا ففاضت أعينهم بالدمع ، وليس المراد عموم النصارى » ، فعقب عليه الأستاذ بقوله : « فهل سمعتم أيها القراء بتفسير أعجب من هذا ؟ »

ذلك لأني اعتبرت قوله تعالى : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا ، الى قوله تعالى : وأنهم لا يستكبرون » في حق النصارى ، واعتبرت قوله تعالى : « وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ، الخ » في حق المسلمين .

والواقع أنى لم أفعل ذلك لأنى اعتبرت الآية خاصة بقوم من النصارى كانوا أسلموا وحضروا الى النبي صلى الله عليه وسلم وسمعوا منه . جاء فى تفسير إمام المفسرين الرازى قوله : « قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدى : المراد به النجاشى وقومه الذين قدموا من الحبشة على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وآمنوا به ، ولم يُرد جميع النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين » انتهى .

وهذا صريح فى تأييدنا لا يحتاج لبيان .

ثم قال الامام الرازى عند تفسير قوله تعالى : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » ما مؤداه : إن بعد النصارى عن الاسلام أشد من بعد اليهود عنه ، لأن النصارى يخالفوننا فى ناحيتين : الإلهيات والنبوات ، ولكن اليهود ينازعوننا فى النبوات فقط .

فهل فيما قلته أنا شطط وقد وافقت فيه إمام المفسرين ؟

وقد ألم الأستاذ بقولى : « إن سرعة التصديق صفة ذم » فقال : « إن سرعة الانقياد الى الحق إذا بهر ، والدليل إذا ظهر من أجل الصفات » . وأنا أوافق فضيلته على ذلك ، ولكن بين سرعة الانقياد للحق (إذا بهر) ، وللدليل (إذا ظهر) ، وبين سرعة التصديق ، بون بعيد ! فسرعة التصديق أن يتعجل فى التصديق قبل أن يتجلى الحق ، وقبل أن يظهر الدليل . وقد ذم الخلقيون جميعا هذه الخصلة ، وأفردوا لها فصولا من كتبهم . وقد حمى الاسلام أهله من الوقوع فى هذه النقيصة العقلية ، فكلفهم التثبت مما يعتقدون ، وزاد فطالبهم بالدليل عليها ، وأوعد على إهماله بتصريحه أن إيمان المقلد غير مقبول .

ولا تطرُّف فيما تحوَّط الاسلام أهله به من هذا التكليف ، فإن أهل كل أمة يزعمون أن الحق الباهر فى جانبهم ، فإن لم يك دليل يستندون اليه ، كانوا خابطين فى الأوهام ، وقانعين عن الحقيقة بالأحلام .

وقد استشهد الأستاذ بسرعة تصديق أبى بكر بالنبى صلى الله عليه وسلم . ولعله يذكر أن أبا بكر كان صديقا لرسول الله منذ صباه ، ويعلم من صدقه وورعه ما يعلمه عن نفسه ، فليس بعجيب أن يسارع الى تصديق نبوته ، ولكن العجيب أن لا يسارع الى تصديقها .

ثم أفاض الأستاذ ـ لأجل تسويغ مدحه لسرعة التصديق ـ فى ذكر ما لشخصية النبى صلى الله عليه وسلم من التأثير الروحانى ، وما للقرآن من سلطان على العقول والقلوب . هذا حسن أن يقال ويكتب ليتروح به (المؤمنون) . أما فى سبيل تمحيص الحقائق ، وتعليل الوقائع فلا ، ويجب أن يُرجع فى ذلك الى حكم القرآن . فالله يقول : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون » ، ويقول : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على

رجل من القريتين عظيم » ؟ ويقول : « وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى يذكر آلهتكم ، وهم بذكر الرحمن هم كافرون » .

ويقول الله فى أثر القرآن على قلوب (الكافرين) : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » ، ويقول : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى » ، ويقول : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به إلا الفاسقين » .

هذا مذهب القرآن فى تقريب الحقائق ، وبيان الوقائع ، ووضع الأمور فى نصابها ، ورد المعلولات الى عللها ، ليتبين الحق من الباطل ، والرشد من الغى ، وليتضح جد الأسباب من هزلها ، ولباب العوامل من قشورها .

إيراد سهل الايراد :

حاول فضيلة الأستاذ تحت هذا العنوان أن يرد على ما قلته بأن الحروب التى حدثت بين النصارى والمسلمين تنفى كونهم مؤمنين بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن تقاتلهم لا ينفى أن النصارى مؤمنون فى صميم أفئدتهم بالنبى وبالقرآن الكريم ، مستدلا على ذلك بالحروب التى يوقد نارها النصارى بعضهم على بعض ، وهم متفقون فى الدين .

نقول : صدق الأستاذ ، إن بين أمم متفقة فى الدين الآن حربا تشيب لهولها الولدان ، وهى حرب دعت اليها عوامل اقتصادية كما هو بدهى ، وهذه العوامل توجب الشقاق بين أقرب القرابات ، ولكن منذ نحو خمسة قرون شبت حروب بين الكاثوليك والبروتستانت دعيت رسميا باسم الحروب الدينية ، لأن الحوافز عليها كانت دينية محضة . وكانت قبل ذلك حروب اعترف رسميا بأنها حروب دينية أيضا ، حدثت بين النصارى والمسلمين ودامت نحو أربعة قرون متوالية وسمت بالحروب الصليبية ، اشتبكت فيها أمم أوروبا بالمسلمين فى آسيا وأفريقا ، وكانت سببا لفظائع انتقامية ترتعد لهولها الفرائص . فهذه حروب كانت بدوافعها وبالاسم الذى أطلقه عليها النصارى أنفسهم دينية محضة ، ولكن هذا النوع من الحروب قد بطل الآن لانتشار روح الزمالة الانسانية بين الشعوب ، وهذا غرض تساعد عليه روحا الاسلام والمسيحية على السواء .

وأراد فضيلته أن يقلل من قيمة ما استدللت به على تسارع أمم برمتها الى الاسلام كالفرس والترك وليس فى كتبها بشارات بالنبى ، ونكوص اليهود والنصارى عنه وفى كتبهم بشارات ، فقال : إن لإسلام تلك الأمم أسبابا شتى مثل التغلب النهائى على الأمة الفارسية وامتزاج المسلمين بهم .

ونحن نرد ذلك بأن الأمة الاسلامية تغلبت على إسبانيا وامتزجت بأهلها قرونا ، فلم يسلم أهلها ، بل أجبروا ألوفا من العرب حين تغلبوا عليهم على التنصر .

ثم علل فضيلته إسلام الأمة التركية بامتزاجها الكلي بالعرب . ونرد ذلك بأن الترك أسلموا قبل أن يمتزجوا بالعرب ، وقبل أن يطوف بخيالهم أنهم سيختلطون بالعرب فى بلادهم بعدة قرون ، فهم لم يتصلوا بهم إلا بعد فتح السلطان سليم لمصر سنة ٩٢٠ ﻫ .

* * *

نعود الى قصة هيرقل فنقول : كتبنا فى السيرة أن هيرقل لما وصله كتاب النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه للاسلام ، أراد أن يسأل عن رسول الله من يعرفه من قومه ، فاتفق وجود أبى سفيان بن حرب ورجال معه ، فاستحضرهم وسأل أبا سفيان عن رسول الله فأجابه . وهنا زاد الرواة قولهم إن هيرقل مال الى الاسلام ، وأراد أن يحمل قومه عليه ، فجمعهم وعرضه عليهم فأبوا عليه ذلك وغضبوا ؛ فهدأ روعهم بأن زعم لهم بأنه إنما فعل ذلك ليختبر قوة تمسكهم بدينهم؛ أوردت هذا الخبر وتشككت فيه فقلت : يعقل أن أمبراطور الرومان أراد أن يستقصى خبر النبى صلى الله عليه وسلم من قومه مباشرة ، فاستحضر من اتفق وجوده ببلده من العرب وسألهم . أما إسلام هيرقل ودعوته لقومه للاسلام ، فلا يمكن أن يعقل للأسباب التى بسطتها هناك ، لا لأن قيصر أكبر من أن يسلم ، ولكن لعدم كفاية الأسباب التى تدعوه للاسلام ، وهو بعيد عن صاحب الدعوة وعن أصحابه القائمين بها .

فرد علىّ فضيلة الأستاذ بأن التشكك فى قصة هيرقل لا يجوز لأنها واردة فى البخارى . فقلت له إن الوارد بالبخارى بسنده الصحيح هو ما جرى من الحديث بين هيرقل وأبى سفيان ، وقد سلمت به وقلت إنه معقول ؛ وأما خبر ميل هيرقل للاسلام وعرضه إياه على كبراء دولته ، وهو القسم الذى تشككت فيه من هذه القصة ، فهو وإن كان موجودا بالبخارى إلا أنه غير مروى بسند البخارى المعروف ، ولكنه مروى عن الزهرى عن ابن الناطور ، والتشكك فى صحته بل القطع بكذبه ، ليس فيه شىء لأن ابن الناطور ليس بثقة لا عند البخارى ولا عند غيره .

فجاء الأستاذ فى مقاله الأخير يقول ما مؤداه : وقد أراد الأستاذ (يعنينى) أن يتخلص من إنكارى عليه تكذيب صحيح البخارى ، فأورد ملاحظتين لا محل لهما ، لأن الحديث الذى أنكرنا تكذيبه ، وهو قصة هيرقل مع أبى سفيان ، ليس بمروى عن ابن الناطور ، وإنما هو مروى عن عبد الله بن عباس عن أبى سفيان .

وأنا هنا أصرح له بأنى لم أكذِّب حديث أبى سفيان مع هيرقل المروى بسند البخارى الصحيح وقلت إنه معقول ، وإنما كذَّبت بما زيد عليه مما روى عن ابن الناطور ، وهو أسقف دمشق مشكوك فى إسلامه . فيكون الأستاذ قد اتهمنى بتكذيب صحيح البخارى ولم أفعل .

يقول فضيلة الأستاذ : « ابن الناطور إما أن يكون قد أسلم كما ذكره ابن حجر فى فتح البارى ، وأن الزهرى لقيه فى خلافة عبد الملك بن مروان ، أو يكون قد بقى على كفره . فإن كان الأول فالأمر ظاهر ولا شك فى قبول روايته ؛ وإن كان الثانى فهو إنما شهد للاسلام لا عليه ، فشهادته للاسلام ليست موضع ريبة حتى تشترط فيها العدالة ، والفضل ما شهدت به الأعداء » .

نقول : إننا لا نستطيع أن نقر هذا المبدأ ، رجل مشكوك فى إسلامه ، أو أسلم حديثا ، لا يكون من التثبت الإسلامى أن نعتمد روايته على الفور قبل التحقق من عدالته بأدلة حاسمة . فإذا كنا لا نقبل أن يكون المسلم العريق راويا إلا بعد التحقق من ورعه ، وكمال سمته ، فهل نسرع الى قبول رواية من ينضم إلينا من أهل الملل بدون أن نبلو أمرهم ، وننتقد سيرهم ؟ ألا يجوز أن يكونوا قد انتحلوا الاسلام ولم يستشعروه ليدسوا إليه ما ليس منه ، توهينا لأصوله ، وتشويها لجماله ؟ هل نسينا ما فعله الذين قبلوا الإسلام ظاهرا ، وهم يضمرون له السوء باطنا ، فأكثروا من وضع الأحاديث المنكرة على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن صبغهم الإسرائيليات والمجوسيات بصبغ إسلامية لتروج بين العامة ، فاغتر فيها متكلمون كثيرون فى الشئون الإسلامية ؟

يقول فضيلة الأستاذ : وإن كان ابن الناطور لم يسلم فشهادته للإسلام ليست موضع ريبة .

نقول : إنه لم يشهد للإسلام ولكنه ذكر عن هيرقل كلاما لا يصدر عن أمبراطور رومانى ، بل ولا عن طفل أوتى مسكة من الرزانة ، وهو أن يحبس كبراء دولته فى كنيسة ويطلب إليهم أن يدخلوا فى الإسلام ! وهم بدل أن يقبضوا عليه ويُقصوه عن الحكم ، يحاولون الهرب منه ، فيجدون أنه أغلق عليهم الأبواب ، فيستدعيهم إليه ويكذب عليهم قائلا : إنما فعلت ما فعلت لأختبر إيمانكم ! !

متى كان إيمان رجال الدولة الرومانية الشرقية موضع ريبة حتى يعمد أمبراطورهم لاختبارهم ، وهل يختبر عياهل الأمم قوة إيمان رجال دولتهم على هذا الوجه المنافى لكرامة الرجولة ، ثم يتخلصون من تبعة فعلتهم بالالتجاء الى الكذب ؟

إن فضيلة الأستاذ بالغ فى إحسان الظن بهرقل هذا حتى جعله داعية للإسلام ، ونقل من بعض الروايات عنه أنه قال : « فلو كنت أعلم أنى أخلص اليه (أى الى النبى صلى الله عليه وسلم) لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه » ، واعتبره فضيلته من أكابر علماء الروماں ، ولو كان تقصى أمره لرأى أن النبى صلى الله عليه وسلم وسمه بأنه عدو لله وأنه كاذب .

جاء فى شرح صحيح مسلم للامام الوشتانى الأبِّى (ص ١٠٤ ج ٥) أن هيرقل أرسل مع

رسول الله كتابا قال فيه : إنه مسلم ولكنه مغلوب على أمره ؛ وأرسل الى النبي صلى الله عليه وسلم بهدية . فلما قرأ رسول الله كتابه قال : كذب عدو الله ، ليس بمسلم بل هو على نصرانيته » .

***

نعود الى إسلام النجاشي فنقول : قد ثبت من صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه : مات أخ لكم في الاسلام هو نجاشي الحبشة ، وقاموا جميعا فصلوا عليه . ولم يذكر البخاري أنه هو الذي أرسل اليه رسول الله كتابا كما أرسل لسائر الملوك .

فجاء الامام مسلم فذكر في صحيحه أن النجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، غير الذي أرسل اليه كتاب الدعوة ، فيلزم من ذلك أن الكتاب الذي شككنا في صحته لا محل له . لأنه لو كان لكتاب رسول الله جواب لكان من النجاشي الذي لم يسلم ، وهو لا يكون على النحو الذي استبعدنا صدوره من نجاشي الحبشة .

وإني إنما استبعدت أن يسلم نجاشي ويجاهر قومه بإسلامه ، لأنه تقرر تاريخيا أن الأحباش من الأمم الشديدة التمسك بدينها ، ولملكها مهام دينية ، واحتفالات رسمية لا بد له من أدائها ، فكيف لم يثر عليه شعبه ويسقطه ، ويصبر على هذه الكارثة الاعتقادية ؟

جاء في كتبنا الاسلامية أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخليفة كان منهمكا على اللهو والفجور ، واتهم بالتنصر ، فثارت الأمة عليه ، واقتحمت قصره ، واحتزت رأسه ، وحملته على سنان رمح ، وطافت به المدينة تشهيرا به وتشفيا منه سنة (١٢٢) هـ . فهل يتورع متعصبة الحبشان ، عن مثل ما أقدم عليه المسلمون ، لو كان كاشفهم النجاشي باسلامه ؟

أما ما ذكره الأستاذ عن كتاب النجاشي مريدا به الرد على ، فاني لم أذكر أن من دلائل وضعه ركاكته ، حتى يصح أن يرد على بأن صاحبه لم يتربى في بادية بني سعد ولا في كلية السوربون أو جامعة اكسفورد ؛ ولكني قلت : « لظهور أثر الصنعة في كل عبارة من عباراته ، بل كل كلمة من كلماته » ومن يرجع اليه يتحقق مما قلت .

وقد افترض الأستاذ أن النجاشي كتب ذلك الكتاب بنفسه ، وليس هذا من العادات الملكية فإن للملوك كتابا يتولون الكتابة لهم .

أما تشدد فضيلة الأستاذ بأن النصارى كانوا في عهد من عهودهم ينتظرون رسولا رجلا بعد عيسى عليه السلام ، فاني أتحدى كل قائل بهذا أن يثبتها من كتب النصرانية ، أو من تاريخهم المحرر بأقلامهم .

***

إن غرضى من التشدد فى النقد نفى الأقاصيص الخرافية من السيرة النبوية ، حتى لا يستهين بها النابتة المتعلمة فى هذا العصر ، ويعدوها دون مستوى عقليتهم وثقافتهم ، لا سيما وأن كثيرا منهم يصرح علنا بأنه لا يمكن تجريد كتاب دينى من الحصة المناسبة لعقلية العامة منه ، فأردت أن أثبت بالعمل لهذا الفريق أنه يمكن أن يُكتب كتاب إسلامى على الأسلوب العلمى دون أن يُهدر منه أصل من أصول الدين ، ويكون فى الوقت نفسه مرضيا للخاصة والعامة معا وهذا ما فعلته فى كل مؤلف وضعته ، وقمت به فى هذه السيرة المحمدية أيضا .

إن ديننا ببيناته العقلية والحسية ، وبمعجزاته الأدبية والاجتماعية ، غنى غِنىً لا حد له عن التلفيقات القصصية التى تماشى عقلية العامة ، ولكنها تضر الخاصة فتجعل بينهم وبين الدين بونا بعيدا ، لأن العقل والقلب يتجهان عادة الى حيث يصادفان السمو . فإذا أردت لفلسفة أن تنجح فاعمل على إيصالها الى درجة السمو ، فان بلغتها فلا تكون فى حاجة الى دعاوة ، فما فيها من سمو يجذب إليها القلوب والعقول صاغرة ؛ والدين الاسلامى ، والحكمة القرآنية ، وسيرة النبى ، والانتقالات العقلية ، والانقلابات الاجتماعية التى سببها ، والثورة الأدبية العالمية التى أحدثها ، فى كل هذا من السمو ما لا تستطيع هممنا مجتمعة أن تقوم بحقه ، فهل نكسف هذا كله فى سبيل تصيد أقاصيص لا تثبت على النقد ، مع علمنا بأن عدد عديدا من الناقمين على الاسلام دخلوا فيه ظاهرا ، وانتووا إفساده باطنا ، فوضعوا عشرات الألوف من الأحاديث والأقاصيص ذات الدلالات الخرافية ، والتى غرتها نشر الحياة الإباحية ، وحل أواصر الجماعات الاسلامية ، متسترين تارة بالصوفية ، وتارة أخرى بالفلسفة اليونانية ، وهم بأى مظهر ظهروا عملوا على أن يفتنوا الناس بسَمْتهم الجميل ، وورعهم البالغ ، وزهادتهم المثالية ، وعباراتهم الخلابة .

إنى أعرف كتبا محشوة بالأضاليل طبعت عشرات من المرات ، وانتشرت بين الناس أيما انتشار ، وأثرت فى عقليات قرائها ونفسياتهم أعمق تأثير .

فالذى أرجوه من المتكلمين فى الاسلام اليوم أن يلاحظوا كل هذا ، وأن يتحروا السمو الذى هو الوصف المميز للاسلام ويظهروه ، وليس إظهاره بأن ينوهوا به تنويها فى ألفاظ محبرة ، ولكن فى أن يعملوا على مقتضى أسلوبه من التمحيص والتحقيق ، ويبلغوا بأنظارهم الى مَثَله الأعلى من التحليل والتركيب . ولست أستطيع أن أبين فداحة التبعة ، وخاصة فى هذا العصر ، من عدم اتباع هذه الطريقة ، فإن نتيجة إهمالها زيادة عمق الهوة التى بين الاسلام ، وبين شبابه المثقفين . فالإسلام امتلك قلوب العالمين بالسمو الذى ظهر به ، ولا يعيد دولته اليه إلا تجلية ذلك السمو الذى فيه ؟

محمد فريد وجدى

حياة رجالات الإسلام

أبو بكر الصديق

— ١٠ —

امتحان الرجولية

في مقالنا السابق رسمنا خطوة من خطوات الفلك في دائرة التاريخ الاسلامي كانت أشد وطأ على قلب الاسلام ، وأقسى امتحانا لايمان المؤمنين من جميع ما ضمت الحياة بين جنباتها من آلام وأهوال ، حتى تزلزت لها أقدام الراسخين ، وذهلت من هولها نفوس الصادقين ، وتفرد الصديق الأعظم رضى الله عنه ، فسما بإيمانه وعقله فوق مستوى العاطفة الى أفق الوراثة العظمى للنبوة الخاتمة في الدعوة الى الله ، وتبليغ دين الله وشرائعه الى الأحمر والأسود ، وثبت الله براسخ يقينه عروة الاسلام .

والآن نتحدث عن خطوة أخرى كانت امتحانا للرجولية عامة ، ووزنا لشخصية الصديق رضى الله عنه بميزان العظمة التي لا يستشرف اليها سوى بكر الاسلام ، ورفيق الغار ، فكان على مهيعه في مواقفه الاسلامية ، عبقريا نسيج وحده ، لا يطاول في رجوليته ، ولا يلحق في وثيق إيمانه ، ولا يدرك في سمو حكمته وحسن سياسته ، ولا يرام في شجاعته وقوة عزمه .

انتهت بيعة أبي بكر رضى الله عنه بالخلافة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم مسجًّى في بيته لمّا ينقل الى الروضة المطهرة ، فكان في ذلك رأب صدع الأمة ، وجمع شملها بعد ما كادت تعصف بها فتنة هوجاء تداركها الله بثاقب رأى الصديق وجليل حزمه ، وكان في ذلك أيضا وزن الايمان بميزان العقل بعد طغيان العاطفة من هول المصاب ، وهذه البيعة الصديقية كانت أول مظهر من مظاهر نظام الحكم الاسلامي في أول أطوار الأمة ومهد نشأتها ، فكانت بيعة قوية يقول فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر » . وهذه القوة في بيعة الخليفة الأول أوضح عنوان على فهم المسلمين الأولين لقيمة الدين ومعنويته ، فهم لا يفهمونه محض تعبّد ورهبنة ، ولكنهم يفهمونه إصلاحا شاملا للفرد والجماعة ، ويفهمونه نظاما يرمى الى وحدة الإنسانية ، وسياستها سياسة حكيمة حتى تصل الى ما قدر لها من كمال ، وحتى تنطلق من القيود والأغلال التي كبلها بها دعاة الأديان فيمن سلف من الأمم ، ودعاة الحكم من المتألهين فوق عروش الاستبداد ، ودعاة العلم من المضللين والمشعوذين باسم العلم والفلسفة ؛ فالإسلام في نظر المسلمين الأولين لا يقيم للشخصيات مهما عظمت وزنا إلا بقدر ما لها من فضيلة تنهض بالمجتمع الانساني وترفع

من شأنه ، فهو يريد أمة يسودها العدل الفردي والاجتماعي ، ونعني به العدل الذي يهذب الحريات الشخصية ، ويهيمن على صلات الفرد بالجماعة ، والجماعة بالفرد ، بل يهيمن على صلات الانسان بغيره من الكائنات .

لم يكد يفرغ أمر البيعة حتى تقدم أبو بكر رضى الله عنه بين يدى الأمة التي ولته قيادها وأسلمته بعد نبيها زمام سياستها ، يرسم سياسته التي سيسير عليها ، ويعاهد الأمة عهدا ينتزعه من الدستور الأعظم ، يأخذ فيه من نفسه للأمة ، ويأخذ من الأمة لنفسه ؛ روى ابن الأثير في التاريخ قال : « بعد أن تمت البيعة صعد أبو بكر المنبر فقال بعد حمد الله والثناء عليه : « أيها الناس وليتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ حقه له ، والقوى عندى ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله تعالى ، لا يدع أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا الى صلاتكم رحمكم الله » .

وهذه الكلمات القليلة المعدودات ، ضمنها الخليفة الأعظم مبادىء الديمقراطية العادلة ، وأسس الحكومة الفاضلة ، ووضح فيها واجب الرعية وحقها على الراعى ، وبيّن واجب الراعى وحقه على الرعية ، وحدد سلطة الحاكم بدستور الطاعة لله ولرسوله ؛ فهل يدلنا المتشدقون من المولعين بالسياسة وأنظمة الحكم ، على نظام حكومى فى أية دولة من هذه الدول المتمدنة ، يعلن فيه رئيس الدولة حق الأمة فى هذه الصورة الباهرة كما أعلنه أول خليفة للأمة الاسلامية فى كلمته الخالدة ؟ وهل يدلنا علماء الاجتماع على أسس لتربية الحيوية فى الأمة وغرس مبادىء الرجولية فى أفرادها أفضل من قول أبى بكر رضى الله عنه : « لا يدع أحد منكم الجهاد ، فانه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ؟ » أفلا يشعر المسلمون اليوم أن ما هم فيه من ذل واستعباد إنما حل بهم من استمرائهم الترف والليونة المهينة ، وتجافيهم عن ذرائع الرجولية ، وتركهم الجهاد تزلفا الى هذه المدنيات الفاجرة ؟ !

كانت وفاة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوق كونها فى ذاتها أفدح نكبة منى بها الاسلام والمسلمون ، بابا ولجت منه فتنة عمياء بأحداث جسام ، فقد ارتد بعض العرب ، وتظاهر المنافقون ، واشرأبت أعناق اليهود ، والمسلمون فى همّ ناصب مع قلة عدد ، وزاد ذلك عليهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أمّر أسامة بن زيد على جيش ليتوجه الى الشام غازيا فى عدد من جند المسلمين عظيم ، وكان صلوات الله عليه شديد الرغبة فى توجه هذا الجيش ، فكثيرا ما كان يقول وهو فى مرضه : « أيها الناس أنفذوا جيش أسامة » . فأى عبء هذا الذى تحمل أبو بكر رضى الله عنه ؟ ولكنها الرجولية تؤدى امتحانها كما امتحن الايمان فرجح بإيمان الأمة جميعها !

تهامس الناس : العرب قد انتقضت علينا ، وفى جيش أسامة جند المسلمين ، وأسامة شاب لم تعركه التجارب ، فليرفعوا أصواتهم الى الخليفة قائلين : « إن جيش أسامة جند المسلمين ، والعرب قد انتقضت علينا ، فلا ينبغى أن تفرق عنك جماعة المسلمين » . ولكن أبا بكر ليس رجلا كالرجال ، بل هو شخصية أسمى وأرفع ؛ إنه كما قلنا ينزع من منبع النبوة ، ومن حديث النبوة الذى اتخذه أبو بكر أسوته فى هذا المقام : أن النبى صلى الله عليه وسلم فى مبدأ الدعوة تحدث اليه عمه أبو طالب حديثا ظنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعفا عن نصرته فقال لعمه : « ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . وأبو بكر رضى الله عنه لم يكد يسمع ممن بلغه مقالة المسلمين حتى قال : « والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته » !

نعم فلينفذ جيش أسامة ، ولكن ليول عليهم من هو أقدم سنا من أسامة ، فمن يكلم الصديق بهذا ؟ وهل غير عمر بن الخطاب يجرؤ على ذلك ؟ قال عمر : « إن الأنصار أمرونى أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة » . فما كان من الصديق إلا أن وثب حين سمع من عمر مقالته حتى أخذ بلحية عمر وقال : « ثكلتك أمك يابن الخطاب ! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ، لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » !

شيع أبو بكر رضى الله عنه جيش أسامة ماشيا وأسامة قائد الجيش راكب ، فقال له أسامة : ياخليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن ! فقال الصديق : « والله لا تنزل ولا أركب ، وما علىّ أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ، فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وسبعمائة خطيئة ترفع عنه » . وفى هذا تكملة لدرس من دروس الصديق فى قصة أسامة ، فهو قد أراد أن يريهم فى نفسه مقدار تعظيمه لأسامة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاه قائدا ، وهو قد أراد أيضا أن يرغب المؤمنين ويقوى نفوسهم على الجهاد لتتمحض بالإخلاص رغبة فيما عند الله وتجافيا عن الدنيا ، ثم هو يزيد فى إظهار قدر أسامة فى نظر جنده وفيهم كثرة من جلة الصحابة ، فيستأذنه فى أن يترك له عمر يستعين به لأنه كان جنديا من جنود أسامة فيأذن له فيه ، وفى ذلك بيان لقيمة قائد الحرب العسكرية فى نظر الاسلام .

توجه جيش أسامة فى وجهه ، فزحفت عبس وذبيان على المدينة ، وترامت الى المسلمين أخبار المتنبئين والمرتدين ومانعى الزكاة ، فشمر أبو بكر لقتالهم جميعا ، فتهيب المسلمون وفيهم عمر بن الخطاب ذلك القتال ، ولكن أبا بكر وهو وارث النبوة المحمدية الأول والقائم

على تراثها المجيد أبى إلا أن يمضى فى طريقه قدما وقال : « والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف بيدى ، ولو منعونى عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم » ! فقال له عمر : « وكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله تعالى » ؟ فقال أبو بكر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : إلا بحقها » . قال عمر : « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

قوة الإيمان إذا صادفت رجولية حركت الجبال الرواسى ، ولو أن ما نزل بالمسلمين فى أول خلافة الصديق نزل بأعظم الدول وأقواها لعصف بها ، ولكن أبا بكر انتهض للأمر لجدد الدين وأرسى قواعده ووجه الجيوش بعد ذلك للفتح والهداية . وإنا لنجد خير ما نختم به الحديث عن سيرة الصديق الأعظم - والحديث عنه لا ينتهى ولا يمل - تلك الكلمة العظيمة التى صورت بها شخصية الصديق أم المؤمنين الصديقية السيدة عائشة رضى الله عنها ، قالت : « أبى وما أبيه ؟ أبى والله لا تعطوه الأيدى ، ذاك طود منيف ، وفرع مديد ، هيهات كذبت الظنون ، أنجح إذ أكديتم ، وسبق إذ ونيتم ، سبق الجواد إذا استولى على الأمد ، فتى قريش ناشئا ، وكهفها كهلا ، يفك عانيها ، ويريش مملقها ، ويرأب شعبها ، ويلم شعثها ، حتى حليته القلوب ، ثم استشرى فى دين الله فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيى فيه ما أمات المبطلون ، وكان رحمه الله غزير الدمعة ، وقيذ الجوانح ، شجى النشيج ، فانقضت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون « الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » فأكبرت ذلك رجالات من قريش فحنت قسيها ، وفوقت سهامها ، وامتثلوه غرضا ، فما فلوا له صفاة ، ولا قصفوا له قناة ، ومر على سيسائه حتى إذا ضرب الدين بجرانه ، ورست أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا ، اختار الله لنبيه ما عنده ، فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه ، ومد طنبه ، ونصب حبائله ، وأجلب بخيله ورجله ، واضطرب حبل الإسلام ، ومرج عهده وماج أهله ، وبغى الغوائل ، وظنت رجال أن أكثبت أطماعهم نهزها ، ولات حين الذى يرجون ، وأنى والصديق بين أظهرهم ، فقام حاسرا مشمرا ، فجمع حاشيتيه ورفع قطريه ، فرد رسن الإسلام على غربه ، ولم شعثه بطبه ، وانتاش الدين فنعشه ، فلما أراح الحق على أهله ، وقرر الرءوس على كواهلها ، وحقن الدماء فى أهبها ، أتته منيته ، فسد ثلمته بنظيره فى الرحمة وشقيقه فى السيرة والمعدلة ، ذاك ابن الخطاب ، لله در أم حملت به ودرت عليه ... فأرونى ماذا ترتأون ؟ وأى يومى أبى تنقمون ؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم ؟ أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ ! أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » ؟

صادق إبراهيم عرجون

التصوف والمتصوفون

— ٨ —

ابن الفارض

حياته :

ولد فى القاهرة فى سنة ٥٧٦ هـ وتوفى فى الأزهر فى سنة ٦٣٢ هـ وهى السنة التى توفى فيها عمر السهروردى ، وكان فى حياته التصوفية فريسة لأنواع كثيرة من الغيبوبة والاضطراب الى حد أنه كان أحيانا يظل ممتدا على الأرض بضعة أيام دون أن يبدى حراكا ، وأحيانا أخرى يتقلب ويتدحرج على سطح الأرض يمينا وشمالا دون أن يعرف أحد ما به . ومن الغريب أنه كان يصنع شعره على أثر هذه النوبات مباشرة .

منتجاته : أما أهم منتجاته فهو ديوانه المفعم بقصائد الحب والغرام والغزل والخمريات ، الى غير ذلك من القصائد التى يقولون إنها موجهة كلها الى الإله معشوقه الأعلى . ويلاحظ الأستاذ « كارادى فو » أن هذه المعانى — إذا صح أنها متجهة الى البارى — قد أديت بألفاظ خليعة شهوانية . ومن أشهر أشعاره تائيته التنسكية الطويلة التى يقول فيها :

وعن مذهبى فى الحب مالى مذهب وإن ملت يوما عنه فارقت ملتى
ولو خطرت لى فى سواك إرادة على خاطرى سهوا قضيت بردتى
لك الحكم فى أمرى ، فما شئت فاصنعى فلم تك إلا فيك ، لا عنك رغبتى

وقد أثبت فى هذه القصيدة أن الحب هو الوسيلة المثلى للسمو والاتصال بالذات الأوحد ، وهو الذى يحقق لصاحبه التفوق على جميع الكائنات ، وأن المحب هو سيد الأتقياء وأفضل المتنسكين الذين لا يشتغلون إلا بالزهادة والتقاليد الظاهرية ، وأرقى من الصنفين المتعارضين : الذى يتبع فى حكمه الشرع ، والذى يتبع العقل .

ومن قصائده الممتازة أيضا ميميته التى يقول فيها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وقد كتب بعض المتأخرين شروحا لهذه القصيدة ، أقل ما يقال فيها : إنها مزيج من مذاهب الشيعة التى لا ترضى بأقل من أن تقحم عليا فى كل شىء حتى فى مذهب الحلول ووحدة الوجود .

محيي الدين بن عربى :

حياته : ولد محيي الدين أبو بكر محمد بن على بن عربى الحاتمى الطائى فى مدينة « المُورْثِيَّة » بالأندلس فى سنة ٥٦٠ هـ . وفى الثامنة من عمره بعثه أهله الى إشبيلية فدرس فيها الحديث والفقه حتى تضلع فيهما . وفى سنة ٥٩٠ هـ قام برحلات واسعة الى الشرق ، فزار مصر

وسوريا والحجاز وبغداد والموصل وآسيا الصغرى . وأقام فى مدينة قونية زمنا تزوج أثناءه بسيدة أيم ، وهى والدة صدر الدين القونى المتنسك المعروف ، ثم عاد الى سوريا فأقام بها حتى توفى فيها فى سنة ٦٣٨ هـ ودفن بالقرب من دمشق وقد هدم بعض المتعصبين قبره ، ولكن السلطان سليم حين فتح دمشق أعاد بناء هذا القبر وأسس بالقرب منه مسجدا جميلا .

مؤلفاته : كتب ابن عربى من المؤلفات عدداً أدهش الباحثين المستشرقين الى حد أن حمل أحدهم وهو الأستاذ « كليمان هوار » على أن يقول : إنها لكثرتها لا يحصرها الخيال ، وهى فى رأيه تبلغ نحو ثلاثمائة مؤلف . وقد نقل الاستاذ « ماسينيون » عن قائمة ابن عربى المعنونة : « فهرس الكتب المصنفة » أن عدد هذه المؤلفات أربعمائة وتسعة وثلاثون كتابا . وقد عثر الأستاذ « بروكلمان » المستشرق الألمانى منها على نحو مائة وخمسين كتابا فى مكتبات الشرق والغرب . ومن أهم هذه الكتب ما يأتى :

(أ) « الفتوحات المكية » وهو عرض تام لجميع المعارف الصوفية ، ودراسة كاملة لمناهجهم وتعاليمهم فى خمسمائة وستين فصلا تقع فى اثنى عشر جزءا . ويحتوى الفصل التاسع والخمسون بعد الخمسمائة منه على مجمل كامل للكتاب كله . وقد كتب الشعرانى المتوفى فى سنة ٩٧٣ هـ — ١٥٦٦ م . ملخصاً هاماً لهذا الكتاب . وحينما طلب ابن عربى الى ابن الفارض أن يكتب شرحا لتائيته أجابه بأنه لا يعرف لها شرحا خيرا من الفتوحات . (ب) « فصوص الحكم » وقد عرض فيه للرسل الخمسة والعشرين وأهميتهم وادعى أنه لم يكتب عن أى رسول منهم إلا بعد ظهوره له . وقد أتمه المؤلف فى دمشق فى سنة ٦٢٧ هـ . وطبع مع شرح بالتركية فى بولاق فى سنة ١٢٥٢ هـ . ثم أخذت منه صورة شمسية بالقاهرة مع شرح عبد الرازق القاشانى فى سنة ١٣٠٩ ثم فى سنة ١٣٢١ هـ .

(ج) « محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار » وهو مجموعة من النكت والملح والنوادر فى الأدب قد طبع فى القاهرة فى سنة ١٢٨٢ ثم فى سنة ١٣٠٥ هـ . (د) « مشاهد الأسرار القدسية » . (هـ) « الأنوار » (و) « إنشاء الدوائر » وقد عرض فيه مؤلفه لبيان مكانة الإنسان فى العالم . (ز) « حلية الأبدال » . (ح) « كيمياء السعادة » . (ط) « الإفاضة » وقد احتوى أنواع المعرفة الثلاثة الأساسية وهى معرفة الله ، والعالم العقلى ، والعالم الحسى . (ى) « ترجمان الأشواق » وهو مجموعة قصائد صوفية يوهم ظاهرها أنها غزل ووصف لحب مادى ، وقد كتب لها شرحا دفع به هذه التهمة التى قد وجهها السطحيون الى كتابه . (ك) « كتاب الأمر المحكم » . قد طبع مع ترجمة تركية فى الأستانة فى سنة ١٣٠٠ هـ . (م) « التجليات الإلهية » . (ن) « تاج الرسائل ومنهاج الوسائل » . (س) « تفسير سورة الضحى » . (ع) « كتاب الأجوبة على الرسائل المنصورية » . (ف) « أنا القرآن والسبع المثانى » . وهى قصيدة عصماء قد احتوت من الآراء التصوفية والوحدية ما لا يستهان به .

(ص) « الرسائل الالهية » قد طبع فى القاهرة فى سنة ١٣٢٥ هـ . (ق) « مواضع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم » طبع فى القاهرة فى سنة ١٣٢٥ هـ . (ر) « كتاب الأخلاق » طبع فى القاهرة بدون تاريخ .

وله كذلك من الكتب الفلسفية والتاريخية والأخلاقية ما لو حاولنا الحديث عنه لطال بنا المدى ، فآثرنا أن نقف عند هـذا القدر ، معلنين أن هؤلاء الرجال الأفذاذ كان لهم على الحركة العقلية الشرقية والنهضة الأوروبية أثر غير ممكن الجحود .

مذهبه :

وحدة الوجود : عرض ابن عـربى فى كتابه « فصوص الحـكم » لـكثير من النظريات الفلسفية ، ولـكنه لـكى يكون فى مأمن من مهاجمة المتعصبين قد مزج بتاريخ كل نبى من الأنبياء الذين تناول الـكتابة عنهم فى هذا السفر شيئا من هذه النظريات ، ليضعها تحت حماية ذلك النبى على نحو ما يعبر أحد المستشرقين . فمن ذلك مثلا نظرية صدور العالم التى مزجها بتاريخ آدم فقرر أنه قد وقع فيضان : الأول هو الذى وجدت المادة المستعدة لتقبل الصور ثم أعدها لقبول الحياة الإلهية . والثانى هو الذى أنتج الوجودات الشخصية بإظهار الـكائنات التى أريدت بهذا الإعداد . وعن الفيض الأول نتجت الجواهر المعينة أو الـكليات واستعداداتها المحددة لها فى العلم الإلهى . وعن الثانى نتج التحقق الخارجى لهذه الأشياء ونتائجها المرادة منها .

وعنده أن هذا الفيض هو الحدث الذى به ينتج الفضل الالهى نور الوجود فى كل جوهر يستقبل الـكائن دون أن يحصل انفصال بين الصورة المدركة فى علم الله والإله نفسه كما تستقبل المرآة صورة الانسان دون أن ينفصل من هـذا الانسان وجهه المنعكس على المرآة . وإذاً ، فصدور الخلق عند ابن عربى هو شبيه بانعكاس المعلومات الإلهية على مرآة . وآدم هو عنده رمز لروح العالم أو هو لمعان هذه المرآة ، إذ أن الله أوجد العالم قبل آدم ، ولـكنه كان وجودا غير حقيقى أى أنه كان ظلا محضا أو وجودا ماديا لا روح فيه ولا حياة كوجود الحمأ الذى صنع منه جسم آدم قبل نفخ الروح فيه ، فلما وجد آدم ظهر الوجود الحقيقى للعالم . ومن هذا يبين أن آدم هو المبدأ النورانى اللطيف الذى أتم الإله به الوجود ومنحه به حقيقته ، كما يبين أيضا أن غاية الإله من إيجاد العالم هى أن يرى فيه جوهره الخاص . وآدم هو المبدأ الروحانى الذى به تحققت هذه الرؤية ، فـكان بالنسبة الى الإله كالانسان للعين (١) . « يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحة ٢٦ وما بعدها من كتاب الغزالى للبارون كارادى فو .

التفكر أس السعادة

رأيت أن أجعل موضوع اليوم الكلام فى التفكر وفائدته ونتائجه ، وبيان أن سعادة الدنيا والآخرة لا تكون إلا بالتفكر الصحيح ، ولذلك حث الله عليه وناط الخير كله به فى الآيات العديدة ، وقد قال زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهما : عجبت لمن يرى مخلوقات الله وما فيها من العجائب ثم يشك فيه ! وعجبت لمن يرى النشأة الأولى ثم يشك فى النشأة الآخرة ! وعجبت لمن يرى الدنيا وفناءها ثم يؤثرها على الآخرة مع صفائها وبقائها ! أو كما قال .

ورأيت أن سبب ذلك كله هو الغفلة وعدم التفكر ، مع أن الأمر فى غاية الوضوح ، فالسموات شاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها فى طلوعها وغروبها ، والأرض شاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها ، وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها ، ولا تتحرك ذرة فى السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها ، وفى حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة ، وكل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ، ودال على جلاله وكبريائه وحكمته ، « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » .

وقد حث القرآن على التفكر فى هذه الآيات بأبلغ ما يكون وأقصى ما يتصور ، مثل قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » . الى غير ذلك من الآيات : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، ومع ذلك فنظرك فيك يكفيك .

ففيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى وما تنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه . ولا يزالون يكتشفون من أسرار ما أودع فى الانسان من العجائب حتى الآن والى ما شاء الله ، مثل الغدد وأعمالها ، ومثل المخ ونقطه التى نيط بكل منها وظيفة مخصوصة مما يحير اللب ويهيج القلب .

فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها ، كيف تطمع فى معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ! وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال : « قتل الانسان ما أكفره ! من أى شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدّره ثم السبيل يسّره » . ويقول : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » ،

ويقول : « ألم يك نطفة من مني يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوّى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » ، ويقول : « ألم نخلقكم من ماء مهين » .

وقد رأيت منذ زمان بعيد أن بعض الفلاسفة الأوربيين قال : يكفيني فى الدلالة على الله تعالى وجود الأنثى بجانب الذكر . وذلك ما أشار اليه القرآن العزيز فى قوله : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

فانظر أيدك الله الى النطفة وهى قطرة من الماء قذرة ، لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت ، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة فى قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم ، ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهى متشابهة متساوية الى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ، ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة ، فدور الرأس ، وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع ، وقسم الأصابع بالأنامل ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف ركب كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار ، ولو ذهبنا الى أن نصف ما فى آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضت فيها الأعمار .

ولنقف بك اليوم هاهنا وموعدنا العدد المقبل إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

بين رجال الدين والفلسفة (١)

— ٤ —

كنت أعتقد وقد كتبت الكلمة الثالثة أن المساجلة بيني وبين الأستاذ الجليل فريد وجدى بك قد انتهت بظهور الحق أياكان موضعه وقائله ، وأنه ليس عليّ بعد هذا إلا المضى فى السبيل التى اختطها للغاية التى قصدتها . ولكن ، ولعل فى هذا خيرا ، أجدنى مضطرا لبدء حديث اليوم بكلمات قصيرة تعليقا على الملاحظات التى جاءت لعزته بالعدد الماضى ، راجيا أن تكون هذه الكلمات ختام المساجلة فى هذه المسألة بعد أن ضاقت شقة الخلاف ، ووضح الحق الذى هو غايتنا جميعا من البحث :

(١) قلت : إن ما فى القرآن من الآيات التى يوهم بعضها التجسيم والتشبيه ، وبعضها الجبر ، وبعضها الاختيار ، والآيات التى أشارت الى أمهات علم الكلام ، كل ذلك يدفع الى هذا العلم . قلت هذا ، وأردت به كما هو واضح أن هذا كله كان من عوامل نشأة علم الكلام لا العوامل كلها ؛ فرأى السيد الأستاذ أن برده مقررا أن « لو كان فى الاسلام ما يوجب علم الكلام أو يسمح به لما كان هو الاسلام الذى أراد الله أن يجمع عليه كلمة الناس فلا يتفرقوا فيه » ، واستشهد بآيات هى : « إن الذين فرقوا دينهم » الآية « فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا » الآيتين ؛ وأعتقد أن مثل هذا لا يصلح أن يكون ردا على ما قلت ، وأن ما استشهد به من آيات لا يستقيم أن يكون شاهدا . القول بأن الله أراد أن يجمع على الاسلام كلمة الناس لا ينافى بأية حال القول بأن الآيات التى ذكرناها ، وأمثالها مع عوامل أخرى ، دعت لعلم الكلام حتى يزول ما بينها من تعارض . ومع حدوث هذا العلم والخلاف فى بعض مسائله ، فالاسلام يجمع كل المتكلمين من معتزلة وغير معتزلة ، إذ لم يختلفوا فى أصل من أصول الاسلام التى لا يقوم إلا بها ، بل كان الخلاف فى شىء من التفاصيل فى بعض العقائد الدينية ، وبذلك لا يكون علم الكلام والخلاف فيه متعارضا مع الاسلام الذى أراد الله أن يجمع عليه كلمة الناس .

أما الآيات التى أوردها السيد الأستاذ فمن الرجوع لبعض كتب التفسير المعتبرة يتبين فى أرجح الأقوال وأظهرها أن المراد بها اليهود والنصارى وسائر أصحاب الديانات المختلفة ، لا فرق أهل الكلام الذين لم يخرجوا بخلافاتهم عن الاسلام . ولهذا قرأ على بن أبى طالب فى الآية الأولى « إن الذين فارقوا » بدل « فرّقوا » ، وكان يقول : والله ما فرّقوه ولكن

---

(١) سقط حرف بالسطر التاسع عشر ص ٥٦٢ بالعدد الماضى فغير المعنى تماما ! فوجب أن يزاد هكذا : ألا تسمى فلسفة بدل أن تسمى فلسفة .

فارقوه . ولهذا أيضا خوطب النبي صلى الله عليه وسلم فى الآيتين الأخريين بقوله تعالى : « فذرهم فى غمرتهم حتى حين » أى ذر الكفار يا محمد فى جهالاتهم حتى يلقوا ما يوعدون . على أنى لم أقرر فيما ذهبت اليه إلا الواقع الذى يؤيده تاريخ علم الكلام ونشأته ، وهو ما ذهب اليه ابن خلدون حين عرض لعلم الكلام وعوامل حدوثه إذ يقول ما نصه : « إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف فى تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها (لعله : مثاره) من الآية المتشابهة ، فدعا ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة الى النقل ، فحدث بذلك علم الكلام » (١)

٢ — لا أجادل فى أن علم الكلام كما يدرس الآن بالأزهر لا غناء فيه ، وربما كان ضرره أكبر من نفعه ، ولى فى هذا كلمة ستنشر إن شاء الله فى العدد الذى على وشك الصدور من مجلة الهداية الاسلامية . ولكنى لا أستطيع ، ولا يستطيع غيرى كذلك ، أن يوافق السيد الأستاذ على أن تأخر حدوث هذا العلم حتى مضى قرن ونصف ـ كما يقول حضرته ـ دليل عدم غنائه . وإلا فكيف كان الرد على أرباب الملل والنحل والمقالات المخالفة والضلالات المنتشرة فى تلك العصور ؟ وإلا كانت العلوم التى ظهرت بعد هذه المدة ـ وما أكثرها وأعظم خيرها ـ لا فائدة فيها أيضا ! ثم كيف يقول السيد الأستاذ بعد هذا : إن علم الكلام هو الذى سبب ظهور الخوارج ، مع أننا جميعا نعلم أن الخوارج ظهروا بعد حادث التحكيم بين على ومعاوية عام ٣٧ هـ لا بعد مائة وخمسين عاما كما يقول عزته !

٣ — نحن لا نفاضل بين أنصار الحكمة القرآنية وبين أشياع الفلسفة اليونانية وإن كان ما دعاه السيد الأستاذ رعونة جعلت هؤلاء يضطهدون مخالفيهم فى فتنة القول بخلق القرآن ليس من الفلسفة ولا تدعو الفلسفة إليه . لقد كان هم الفلاسفة أن يعيشوا بسلام لا يعتدى عليهم ولا يعتدون ، ويرون السعادة فى هذه العافية . فإن رأينا أحد من ينتسبون للفلسفة رأى اضطهاد المخالف لرأيه وسيلة من وسائل إقناعه ، لم يكن ذلك مما يعيبها .

٤ — وأخيرا قلنا فى الكلمة الماضية : إننا لا نحكم على الاسلام وجميع أئمته وأعلامه بصنيع طائفة فى زمن التأخر والانحطاط وإذن فنحن على اتفاق مع الاستاذ « دريبر » وأمثاله فى عدم اتخاذ الحوادث الفردية دليلا على عقلية أمة وروحها ، وإن كان ما وعاه التاريخ من هذه الحوادث التى تجلى فيها روح العداء من رجال الدين للفلسفة لا يجعلها حوادث فردية يجب ألا نلقى لها بالا . نعم من الحق أن نعتبر هذه الحوادث فى الحكم على العصر الذى كانت فيه ، دون أن نرى فيها طابعا يطبع الأمة كلها وفى كل العصور .

والآن بعد هذه الكلمات ، التى نرجو أن تكون فاصلة ، نستأنف الحديث فى الموضوع الذى تصدينا لبحثه فنقول :

* * *

(١) المقدمة ص ٣٦٧ طبع مطبعة التقدم سنة ١٣٢٢ .

انتهينا فى الكلمة الماضية من استعراض موقف رجال الدين من الفلسفة فى الشرق الى نهاية القرن السادس الذى مات فى أواخره شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِىّ . ولا يسع الباحث وقد وصل الى القرن السابع أن يغفل رجلا كان له خطره الكبير ، كما كان لفتواه فى هذه الناحية أثر بالغ استمر مع الزمن حتى أيامنا هذه ، وهو الإمام المحدث والأصولى الفقيه أبو عمر تقى الدين الشهرزورى المعروف بابن الصلاح المتوفى عام ٦٤٣ هـ . لهذا الفقيه الكبير مجموعة فتاوى فى التفسير والحديث والعقائد والأصول ، ومن بينها فتواه بتحريم المنطق والفلسفة تعلما وتعليما ، ووجوب استئصال شأفة من يعرف بشىء من هذه العلوم . ويكفى أن ننقل بعض عباراتها لنقف على شدتها وخطرها ، ولنعلم مبلغ ما كان لها من سلطان ظل قويا هذا الزمن الطويل :

سئل عن حكم الله فيمن يشتغل بكتب ابن سينا وتصانيفه ، فأجاب غفر الله له : « من فعل ذلك فقد غدر بدينه وتعرض للفتنة العظمى » ، لأن ابن سينا « لم يكن من العلماء بل كان شيطانا من شياطين الأنس » (١) وسئل عن حكم الشارع فيمن يشتغل بالمنطق والفلسفة تعلما وتعليما ، وهل يجوز استعمال المنطق فى إثبات الأحكام الشرعية ، وماذا يجب على السلطان إزاء من يتعلم ويعلم المنطق والفلسفة ؟ فأجاب إجابة طويلة جاء فيها : « إن الفلسفة أس السفه والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة ، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة ، ومن تلبس بها تعليما وتعلما قارنه الخذلان والحرمان ، واستحوذ عليه الشيطان ! وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر (٢) ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع . . . وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية فى مباحث الأحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة ، وليس بالأحكام الشرعية والحمد لله افتقار الى المنطق أصلا ! » وانتهى أخيرا بأن قال : « فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المياشيم . . . ويعاقب على الاشتغال بفنهم ، ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام ، لتخمد نارهم وتمحى آثارهم ! . ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والاقراء لها ، ثم سجنه وإلزامه منزله ، وإن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم ، فان حاله يكذبه ، والطريق فى قلع الشر قلع أصوله ، وانتصاب مثله مدرسا من العظائم ! » (٣)

وهذا الحكم القاسى على الفلسفة والمنطق ، نجد له شبيها فى القرن الثامن فى رأى الذهبى فى الفلسفة الإلهية ، إذ يقول : إن الفلسفة الإلهية ما ينظر فيها من يرجى فلاحه ، ولا يركن

(١) فتاوى ابن الصلاح نشر منير الدمشقى عام ١٣٤٨ هـ ص ٣٤ (٢) يلاحظ هنا أنه استعمل المنطق دون أن يدرى فى الاستدلال على تحريمه . (٣) الفتاوى نفسها ص ٣٥

الى اعتقادها من يلوح نجاحه ؛ فان هذا العلم فى شق ، وما جاءت به الرسل فى شق ، وما دواء هـذه العلوم وعلمائها والقائمين بها علما وعملا إلا التحريق والإعدام من الوجود ، إذ الدين كان كاملا حتى عرّبت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون ، فلو أعدمت لكان فتحا مبينا (١) .

على أنه فى رأينا أن ابن الصلاح لم يكن متفردا بهذا الرأى الخاطئ والحملة الآثمة على العلوم الفلسفية ، بل كان يعبر بفتواه عن الرأى السائد لجمهرة أهل السنة فى عصره . ولعل من الأدلة القوية على هذا ما امتحن به أحد معاصريه وهو سيف الدين الآمدى كما تقدم ذكره ، وموقف تاج الدين السبكى المتوفى عام ٧٧١ هـ ضد الفلسفة والفلاسفة ، بل ضد المتأخرين من المتكلمين الذين مزجوا الكلام بالفلسفة . ذلك أن السبكى يوافق تماما على فتوى ابن الصلاح والأئمة والمشايخ بتحريم الفلسفة ، وإن كان لا يذهب مثل ابن الصلاح الى تحريم المنطق تحريما تاما . وكيف يذهب الى هذا وهو يرى أن حجة الإسلام الغزالى اشتغل به وعنى بدراسته وألف فيه ! على أنه سجل لنا فى طبقاته أن الرأى العام ينسب ما كان للغزالى فى بعض المسائل من آراء لا تتفق ومذهب أهل السنة ، الى ما تأثر به من دراسته لعلوم الأوائل رجاء الرد عليها وبيان تهافتها (٢) . كذلك مما يبين لنا مقدار أثر فتوى ابن الصلاح ما ذكره السيوطى جلال الدين فى مقدمة كتابه « طبقات المفسرين » إذ يقول فى أثناء ترجمته لنفسه : « وقد كنت فى مبادئ الطلب قرأت شيئا فى علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهته فى قلبى ، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك ، فعوضنى الله تعالى عنه علم الحديث وهو أشرف العلوم » (٣) .

هذا ونختم الحديث عن مبلغ احتقار وكراهة الفلسفة والمتفلسفين فى المشرق فى العصور الوسطى ، بآراء ثلاثة من المؤرخين الثقات ، هم ابن خلدون ، والمقريزى ، وطاش كبرى زاده .

أما ابن خلدون المتوفى عام ٨٠٨ هـ فيرى فى مقدمته « أن الفلسفة مخالفة للشريعة ، فليكن الناظر فيها متحذرا من معاطبها » . (٤) وأما تقى الدين المقريزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ فقد ذكر فى الفصل الخاص بعقائد أهل الإسلام ، منذ ابتداء الملة الاسلامية الى أن انتشر مذهب الأشعرية : أن الفلسفة بعد أن انتشرت فى الناس بسبب ترجمة المأمون لكتبها ، أقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها وأكثروا من النظر فيها ، « فانجر على الاسلام وأهله من علوم الفلاسفة مالا يوصف من البلاء والمحنة فى الدين ، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع وزادتهم كفرا الى كفرهم »(٥) . بقى طاش كبرى زاده صاحب كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة . لقد تكلم فى المقدمة الثانية من كتابه على شرائط التعلم ووظائفه ، وحث المتعلم على

---

(١) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على ج ٢ ص ٤٣ . (٢) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٠ عن التراث اليونانى ص ١٣٣ . (٣) التراث اليونانى ص ١٦٥ . (٤) المقدمة ص ٤٣٢ . (٥) الخطط طبع مطبعة النيل بالقاهرة عام ١٣٢٦ هـ ج ٤ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

ألا يدع فنا من فنون العلم دون أن ينظر فيه نظرا يطلع به على غايته ومقصده وطريقته ، وحذر من الاستهانة بعلم المنطق الذى هو أصل كل علم وتقويم كل ذهن ، لكنه بعد هذا حذر من أن نطلق اسم العلم على « الحكمة المموهة التى اخترعها الفارابى وابن سينا » . كما وصف حكماء الإسلام بأنهم طائفة « عكفوا على دراسات ترهات أهل الضلال وسموها الحكمة ، وربما استجهلوا من عرى عنها ، وهم أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله ، فالحذر الحذر منهم ؛ والاشتغال بحكمتهم حرام فى شريعتنا ، وهم أضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى لأنهم يتسترون بزى أهل الاسلام » . (١) على أنه بعد هذا الحكم الشديد جدا ، والذى لا أساس له من الحق ، أباح النظر فى علوم الفلسفة لمن رسخت قواعد الشريعة فى قلبه بشرط ألا يتجاوز مسائلهم المخالفة للشريعة إلا للرد عليها ، وألا يمزج كلامهم بكلام علماء الاسلام » (٢) .

***

والآن وقد عرفنا معرفة يؤيدها الدليل موقف أهل السنة ورجال الدين من الفلسفة ورجالها فى المشرق ، ننتقل الى مثل ذلك فى المغرب ، لنتعرف عوامل هذا الموقف ، وليظهر أنه كان طبيعيا وضروريا أن يعنى فلاسفة الاسلام قبل كل شىء بمحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة ، ثم لنخلص بعد هذا كله للكلام على محاولات هذا التوفيق ، إذ كانت هذه المحاولات فى رأينا أبرز جهود الفلاسفة المسلمين ؛ إذ فيها ظهرت روحهم وروح الاسلام واضحة جلية ، وبها أمكن أن يقال إن للمسلمين فلسفة خاصة ، وأنهم فعلوا شيئا أكثر من نقل الفلسفة اليونانية بحروف عربية كما يتجنى بذلك عليهم « أرنست رينان » الكاتب الفرنسى المعروف .

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

كلمة أخرى فى الموضوع نفسه

يتمنى فضيلة الأستاذ صاحب مقالات (بين رجال الدين والفلسفة) أن لو كان انتهى دور التعقيب على مقالاته ؛ ولكن مهمتى فى هذه المجلة تضطرنى الى ذلك ، لا سيما والموضوع الذى يكتب فيه حضرته ، من أكثر الموضوعات اتصالا بمعنى الاسلام ، وبمهمته الروحية والاجتماعية فى النوع البشرى .

وإنى قبل البدء فى الموضوع الذى أريد أن أكتبه اليوم ، أرى أن أعيد ذكر ما سبق لى قوله:

(١) ج ١ ص ٢٦ من الكتاب المذكور . (٢) نفسه ج ١ ص ٢٦ أيضا .

وهو أن الاسلام ليس بدين خاص بأمة ، كـكل الأديان التي سبقته ، ولـكنه شرع آخرها جميعا ليكون دينا عاما للناس كافة ، توحيدا لوجهاتهم الى غاية واحدة ، ليصلوا الى أسمى ما قدر لهم من رقى صورى ومعنوى ، إخوانا مترافدين متعاونين .

النصوص القرآنية التي بين أيدينا تصرح بأن الله أرسل للسابقين رسلا ، وأوحى اليهم كتبا ، تهدى الى طريق الحق ، وتأخذ بيدهم الى الحياة الطيبة ؛ فـكانوا لا يلبثون أن يختلفوا ويتنازعوا فى تأويلها ، حتى يُخرجوا الدين عن صراطه ، ويصبح عقبة فى طريقهم الى الترقى ، بعد أن كان أقوى دافع لهم اليه .

فلما بلغ العقل رشده بعد طول مراسه للحوادث ، وسهل الاتصال بين الأجزاء المأهولة من الأرض ، واستعدت النفوس لقبول مبدأ وحدة الانسانية ، شرع الله للناس الاسلام ، وأرسل محمدا خاتما للأنبياء ، وأوحى اليه كتابا حوى النهايات القصوى لمطامح القلوب والعقول ، والمُثُل العليا لـكل ما تقتضيه الحياة الأدبية والاجتماعية ؛ وناط به حل جميع الخلافات الدينية لدى الأمم ، وإزالة ما أوجده سوء الفهم من بعضهم ، والغلو أو التقصير من بعضهم الآخر ، والضلالات من كل ضرب عند جميعهم .

وقد نص القرآن الـكريم على هذا ، ونحن نورد بعض الآيات الواردة فيه ، ليتضح فى أكمل مجاليه ، قال تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، الآية » .

وقال سبحانه : « كان الناس أمة واحدة (أى فاختلفوا ، وهى محذوفة هنا) ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الـكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » .

وقال سبحانه : « ولقد آتينا موسى الـكتاب فاختُلف فيه » .

وقال سبحانه : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، فما أصبرهم على النار ! ذلك بأن الله نزل الـكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا فى الـكتاب لفى شقاق بعيد » .

وحـذر المسلمين من أن يلتاثوا بأدواء الأمم ، فيقعوا فى الخلافات مثلهم ، فقال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

وصرح لهم بعـد ذلك بأن أخص مهام القرآن إزالة الخلافات الدينية ، ومحق المماحكات المذهبية ، وقد سُمى بوصفه المميز له ، فدُعى بالفرقان لتفرقته بين الحق والباطل ، فقال تعالى :

« تالله لقـد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم ولهم عـذاب أليم » .

« وما أنزلنا عليك الـكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهـدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

إن ديننا هذا شأنه فى ذم الخلافات الدينية ، وفى حصره مهمته فى رفع هذه الخلافات بين البشر ، لا يصح أن يكون هو نفسه ـ بجناية بعض أتباعه عليه ـ محلا للخلافات ، ومثارا للمنازعات ، فيحتاج لغيره فى رفع هذه الخلافات منه ؛ كما لا يصح أن يكون المنطق الذى جعل للتفرقة بين الصحيح والسقيم من المعقولات ، محلا للخلاف بين الناظرين ، فيحتاج الى منطق آخر لرفع ذلك الخلاف .

لهذا قلنا : إنه لو كان دين تأبى طبيعته علم الكلام لكان هو الاسلام .

هنا قد يقال : وماذا يُعمَل فيما يحتمل النقيضين فى بعض الآيات ، وما يوهم التجسيد والتشبيه فى البعض الآخر ؟

نقول : لقد كفتك خصائص اللغة والكتاب نفسه هذه المؤونة ، فاللغة أزالت بمجازاتها واستعاراتها وكناياتها كل ما يوهم التجسيد والتشبيه ؛ والكتاب منعك بآية المحكم والمتشابه من تناول مالا تدركه من شئون ما فوق الطبيعة بالشرح والتأويل . وهو لم يفعل ذلك وفى قدرة العقل البشرى الوصول الى حل معاضله ، بدليل أن عددا لا يحصى من الناس أمضوا أعمارهم فى البحث والكلام فيها ، وبادوا وخلفتهم أجيال كثيرة فعلوا مثل فعلهم ، وما تزال هذه المعاضل ماثلة فى جميع الأديان بدون حل ، فما الذى كان يمنع المعتزلة وأصحاب الفرق أن يطيعوا الكتاب ، ويكفوا أنفسهم شر تمضية العمر فيما لا طائل تحته من التمارى والملاحاة ؟

يقول فضيلة الأستاذ ردا علينا : إنه مع حدوث علم الكلام فان الاسلام يجمع كل المتكلمين ، لأنهم لم يختلفوا فى أصل من أصوله ، ولا فى شىء من تفاصيل بعض عقائده ، وبذلك لا يكون علم الكلام والخلاف متعارضا مع الاسلام الذى أراد الله أن يجمع عليه كلمة الناس .

وقال فضيلته : إن الآيات التى استشهدتُ بها أنا فى عدم جواز التفرق فى الدين ، إنما نزلت فى أهل الكتاب وسائر أصحاب الديانات ، لا فى المسلمين .

فأما أن الخلافات إذا لم تكن فى أصل من أصول الدين فلا يكون بها بأس ، فهو صحيح ، ولكن إذا كانت على نحو ما يحدث بين الاخوان المتحابين ، ولم تصل الى حد التحزب والتحيز الى ناحية ؛ وقد ضرب المسلمون الأولون فى القرنين الأول والثانى أحسن الأمثال فى ذلك ، فكانوا يتخالفون ويتفاهمون ، أو يصر كل فريق على رأيه ، ولا يحملهم ذلك على التحيز ولا التحزب ، ووقوف بعضهم إزاء بعض متحفزين للوثاب .

ولكن لما نشأ المتكلمون نشأت معهم نزعة الجدل والمماراة ، وهى النزعة التى تطورت الى فتن أريقت فيها الدماء ، متناسين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل » .

وقد نتج من هذا التحزب نزوع من كل فريق الى لفت النظر الى نفسه ، بإثارة المناظرات ، وإهاجة المساجلات ، وعرض المشكلات ، والإكثار من الافتراضات ، وكلها من الأمور المحظورة فى الاسلام ، الداعية الى العناد والخصام .

وقد تحوّط رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته عن الوقوع فى فتنة الكلام ، فنهاهم حتى عن المسألة فقال : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرةُ مسائلهم ، واختلافُهم على أنبيائهم » رواه البخارى ومسلم .

ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يرخص فى المسائل إلا لأهل البوادى والوفود ، فكان أصحابه يفرحون لورود هؤلاء ليسمعوا أجوبة النبى على مسائلهم . قال البراء بن عازب : إن كان لتأتى علىّ السنة أريد أن أسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن شىء فأتهيب منه ، وإن كنا لنتمنى الأعراب .

هنا قد تغمض حكمة نهى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه عن السؤال فنقول : قد يتولد عن السؤال زيادة تشديد فى التكاليف ، والإسلام مبنى على التيسير لا على التعسير ، فلذلك شدد النبى صلى الله عليه وسلم على أصحابه أن يمتنعوا عن سؤاله ، مكتفين بما أمرهم بالقيام به ، وما أوعز إليهم باجتنابه ؛ ولو كان أطلق لهم الحرية فى سؤاله ، لكانت أخذت التكاليف الدينية شكلا من التعقد والصعوبة تخرج به عما بنى عليه الاسلام ، ولوجد الناس عنتا شديدا من العمل به .

وقد مضى المسلمون على هذه السنة نحوا من مائة وخمسين سنة ، كانت أكثر بركة عليهم من جميع القرون التى تلتها حتى يومنا هذا : فقد ألفوا فيها جماعتهم ، وأقاموا دولتهم ، ونشروا دياناتهم ، وفتحوا ممالك لم يتسن لأكبر دولة فى الأرض ـ وهى الدولة الرومانية ـ أن تبلغ شأوها .

فلما التاث المسلمون بداء الأمم الموجودة من التحزب فى أديانها ، والتفرق فيها ، والاشتغال بالجدال والمماراة ، والتوسع فى القيل والقال ، ضاع معنى الاسلام ، ودب الى جثمان دولتهم الضعف ، واستحال الضعف الى جمود أدبى واجتماعى لا نزال فيه الى اليوم .

قال فضيلة الأستاذ : إن الآيات القرآنية التى أوردتها أنا فى الزجر عن التفرق كقوله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » ، إنما نزلت فى أهل الكتاب وغيرهم لا فى المسلمين ؛ وأنا أوافقه على ذلك بل هو من البداهات العقلية ، ولكن أليس فى طيه نهى رادع للمسلمين عن احتذاء شاكلة من سبقهم ، إذ لا يُعقل أن يسمح لهم بما يعيب عليه غيرهم ؟

قال الأستاذ الفاضل : إن مضى قرن ونصف قرن على المسلمين وهم فى غنى عن علم الكلام ، لا يدل على عدم فائدته ، وإلا فكيف كان يُرد على أرباب الملل والنحل ، والمقالات المخالفة ، والضلالات المنتشرة فى تلك العصور ؟

نقول : إن الضلالات التى كانت انتشرت فى تلك العصور ، نشأت كلها من علم الكلام ، وهو أمر طبيعى لا يمكن التشكك فيه ، فمتى سمح المسلم لنفسه أن يعدى القرآن ، وينظر فى تأويل المتشابهات التى نهى الله عن محاولة تأويلها ، لاستحالة ذلك بالعقل العادى ، تأدى الى مجهولات ، فيضطر إما الى تأويلها فيأتى بما لا يقول به ذو عقل ، وإما الى الكفر بها ، واعتبار كفره مذهبا تصح الدعوة اليه ، والمناضحة دونه بكل سلاح .

كل ما يمكن أن يقال ليس بداع مشروع فى نظرى لوجود علم الكلام ، أليس القرآن بكاف فى رد هذه الضلالات ، وكبت تلك الغوايات ؟ أليست حججه وبيناته وأسلوبه ، فى أرفع ما يمكن أن يتصوره العقل من درجات الاقناع ، وأعلى ما يتخيله من قوة التأثير ؟ أهو فى حاجة لما يقوم الى جانبه ليقوى حملاته ضد الكفرة والمبتدعة والمشاغبين ؟

إذا صح ما قيل من أن هذه الأمة لا يصلحها إلا ما صلح به أولها ، فإن الصدر الأول من المسلمين كانوا يكرهون أن يكون للدين غير كتاب مدون واحد ، هو القرآن ، فخرّجوا على أنفسهم أن يكتبوا أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم . لبثوا على ذلك نحو مائة سنة حتى حبب الى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن يجمع تلك الأحاديث ، فأمر الامام الزهرى بأن يتولى ذلك ، فجمع حفاظها وقاموا بتدوينها .

فهل كان يسمح أولئك المسلمون الأولون ، وقد منعوا تدوين الأحاديث ، بأن تقوم الى جانب القرآن ، آراء وخيالات بشرية مدونة ، تدعى تأويل ما قرر استحالة تأويله منه ، والمناضحة عنه ، كأنه لا يغنى عن نفسه حيال الخصوم ؟

إن محاولة كشف ما وراء المحسوس حاجة من حاجات العقول ، وللمؤمنين به أن يملأوا كتبا فى التحسس منه . ولكن لحساب الثقافة العامة الدائمة التحول والتطور ، لا لحساب الدين الثابت المنزه عن التحول ؛ فان ما قد يروج منها فى عصر ، لا يصح أن يكون له سلطان فى كل العصور وعلى كل العقول . وما كان هذا شأنه لا يجوز أن يُسلط على كتاب الدين لأنه قد يضر قضيته أكثر مما يفيدها . فمن يرجع الى أدلة علم الكلام القائم اليوم يجدها غير كافية فى التدليل وفى نفى الشبهات ، بَله أن كثيرا منها وهمى ليس من الواقع فى شىء ، وما نستبدله به اليوم سيعتريه ما اعترى سابقه بعد حين لا محالة ؛ فماذا يكون أثر هذا القصور على المعاصرين وأخلافهم ونحن فى طور الدليل المحسوس ؟

* * *

قال الأستاذ الفاضل : وكيف يقول السيد الأستاذ بعد هذا بأن علم الكلام هو الذى سبب ظهور الخوارج ، مع أننا جميعا نعلم أن الخوارج ظهروا بعد حادث التحكيم بين على ومعاوية سنة (٣٧) الخ ؟

أقول : كنت أود لو كان الأستاذ الفاضل معتقدا بأن هذا لا يكون من مثلى إلا خطأ قلميا ، وبأنى أعرف الخوارج قبل الكثيرين غيرى ، وبأنى نظرت فيهم نظرات علمية قبل أن يطوف خيال منها برأس أكثر الكاتبين ، وبأنى قد دونت تاريخ الخوارج بقلمى فى (دائرة معارف القرن العشرين) فى المجلد الثالث منها صفحة (٦٩١) فقلت :

« (الخوارج) - : كل من خرج على الامام الذى اجتمعت عليه الأمة يسمى خارجيا ؛ وأول من خرج على على أمير المؤمنين قوم ممن كانوا معه فى صفين ضد معاوية لما نازعه فى الخلافة ... الخ الخ

« كبار فرق الخوارج ستة : وهم الأزارقة ، والنجدات ، والصفرية ، والعجاردة ، والاباضية ، والثعالبة ، والباقون فروعهم ... الخ الخ

« كان خروج الخوارج فى الصدر الأول على أمرين ... الخ الخ » .

فالذى يدون بقلمه ما رأيت لا يجهل الخوارج ، وإنما قصدت أن أكتب (الفرق) فكتبت الخوارج سهوا .

قال الأستاذ : « وأخيرا قلنا فى الكلمة الماضية (يريد الرابعة) إننا لا نحكم على الاسلام وجميع أئمته وأعلامه بصنيع طائفة فى زمن التأخر والانحطاط ، وإذن فنحن على اتفاق مع الأستاذ (دربير) وأمثاله فى عدم اتخاذ الحوادث الفردية دليلا على عقلية أمة وروحها » .

نقول : لو كان الأستاذ كتب هذه العبارة فى مقالته (الأولى) ، لما كنا عقبنا على كتاباته بحرف واحد . فعلام التعقيب على مقالات قصد بها ذكر تاريخ بعض الجامدين الذين كانوا يقفون فى وجوه المفكرين لصدهم عما يبيحه لهم الاسلام من حرية البحث ؟ ولكنى لأجل تبرئة نفسى من وصمة التجنى أقول له : إن المقال الأول للاستاذ كان يقتضى التعقيب أو الاهمال ، فآثرت له الأول حرصا على مبدأ حرية الرأى لأمثاله من المفكرين المجددين . ولست أود إعادة ما قلت ، فإذا شك فى ذلك قارئ فليرجع الى ذلك المقال .

محمد فريد وجدى

التثبت فى العلم

قال الله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

وقيل لمحمد بن عبد الله بن عمر : ما هذا العلم الذى بنتَ به عن العالم (أى بعدت به عن الناس واعتزلتهم) ؟

قال : كنت إذا أخذت كتابا جعلته مزرعة .

وقيل لمصقلة : ما أكثر شكك ؟ قال : محاماة عن اليقين .

العيـــــــد

للمصريين فى قضاء الأعياد أساليب مختلفة باختلاف الطوائف ، وتفاوت حظوظها من الثقافة والثروة ، وتمكن سلطان العادات والتقاليد من نفوسها . فطائفة منهم تستن فى الأعياد بسنة الاسلام ، فتحيي ليلة العيد والناس نيام ، وتتجنب الآثام ، وتمتنع عن هجر الكلام ، وتصل الأرحام ، وتعطف على الأيتام ، وتؤدى فى الجملة حقوق الله وحقوق الأنام ، وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم .

وطائفة أولعت بتقليد الغربيين فى الأعياد ولوعها بتقليدهم فى غيرها ، وجرت فى هذا المضمار الى الغاية ، والتزمت فى الأعياد والمواسم ما التزموه ، فتحيي ليلة العيد باللهو والمجون ، والقصف والشراب ، والأنس بالأحباب ، وتغدو يومه الى المتنزهات ، وتروح بالآثام ، وتقبض أيديها عن الحلال وتبسطها فى الحرام .

وطائفة لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، وهى طائفة العامة من الشعب ، وهى الكثرة الغالبة ، تحاول أن تلحق الطائفة الأولى فيقعد بها جهلها بالدين وأحكامه وما ورثته عن الأجيال السابقة من عادات وتقاليد ، وتحاول اللحاق بالثانية فيقعد بها حظها من المال والثروة ، فهى الطائفة الحائرة :

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن   وإن لقيت معديا فعدنانى

فسلوكها فى الحياة وأسلوبها فى الأعياد والمواسم خليط مشوش من تعاليم الاسلام ، وتقاليد الأغيار . تلهو يوم العيد إلا أنها تسرف فى اللهو وتخرج به أحيانا عن حدود الآداب ، وتظهر فى مظاهر تسودها الفوضى ، وينكرها الذوق ، وتأباها المروءة ، وترسم فى أذهان الأسر الكريمة لهذا اليوم صورا رهيبة ، تفضل من أجلها الاستكنان فى المنازل على الخروج للاستمتاع بنصيبها من سرور ذلك اليوم وبهجته ، فالمتنزهات والمسارح ودور السينما والطرقات تفيض فى ذلك اليوم بما يجرح الشعور ، ويؤلم النفس . وليس المقام بمحتاج الى ضرب الأمثال ، وحسب القراء ما يعرفون .

وقد يكون من أشد المظاهر منافاة للدين والكرامة والشعور ، مظاهر زيارة القبور فى أيام الأعياد ، وما تلقاه الفضيلة فيها من الاستخفاف والامتهان ، تلك المظاهر التى ضج لها العقلاء ، وبحت منها أصوات المصلحين ، وشغل بها العلماء والوعاظ ، وسنت لها النظم ، ثم ذهبت هذه الجهود هباء ، ومازالت تلك المظاهر تتكرر على صورها السابقة ، بل أشد منها نكرا ومازال زوار القبور يتخذونها أندية للّهو ، ومباءات للفجور ، وما تزال « عربات الكارو » تحمل قبيل العيد الى المقابر أكداس الزائرين والزائرات ، وصناديق الأطعمة ، وأمتعة الاقامة .

ومن الغريب المخجل أنك تجد بعض (العربات) قد تحولت فى طريقها ذاهبة أو راجعة الى حلقات للهو والتفريح ، وقام فيها من يطبل أو يزمر أو يرقص أو يطنز ، ويسعده من حوله بالحركات والأصوات والآهات . هذه بعض مظاهر السرور والمرح لهذه الطبقة فى الأعياد والمواسم ، وهى الطبقة الغالبة فى الشعب كما أسلفنا ، وليس من شك فى حاجة هذه المظاهر الى الصقل والتهذيب ، كما أنه ليس من شك فى أن المطالب بذلك والمسئول عنه الآن وزارة الشئون الاجتماعية ، وإذا طالبنا وزارة الشئون الاجتماعية أن تنهض بهذه المهمة وتقوم بدور المصلح فانا نطالب الجهة الرسمية ذات الاختصاص بما هو من صميم عملها .

وفى الوقت الذى نطالبها بأن تتناول هذه المظاهر بالتنظيم أو تستبدل بها مظاهر مستساغة توفر للمصريين ، وخاصة كرام الأسر ، الاستمتاع بنصيبها من مرح هذه الأيام ومناظر الابتهاج فيها دون تعرض لمضايقة ، ودون جرح للشعور والكرامة . فى هذا الوقت نقدر خطر هذه المهمة وما يعترضها من صعوبات وراثية وتقليدية تسيطر على عقول الشعب وعواطفه .

غير أنه لا ينبغى أن تثنينا هذه الصعوبات عن العلاج ، فكل شىء يبدو فى أوله عسيرا خصوصا فى النواحى الاجتماعية، ولكن مرور الزمن وتضافر الهمم والشعور بضرورة العلاج كل أولئك يدنى من الأمل ويقرب من الغاية .

ومما يتصل بحديث العيد ولا نرى بأسا فى عرضه على الشعب وعلى وزارة الشئون الاجتماعية فكرة نرجو أن تجد منهما حظا من القبول واستعدادا للتنفيذ . هذه الفكرة هى استغلال عاطفة الخير فى الاصلاح الاجتماعى وقدرة الأفراد على البذل فى أيام الأعياد . فلا ريب أن عاطفة الخير فى أيام الأعياد تكون قوية فى نفوس الأفراد ، وأن استعدادهم للاشتراك فى أعمال البر يكون قويا . ومما لا شك فيه أيضا أن مقدرتهم المالية فى المواسم والأعياد تكون كبيرة الى حد ما ؛ فكلنا يعرف أن كل فرد ، لا أستثنى من ذلك فقيرا ولا طفلا ولا شيخا ، يعد للانفاق فى هذه المواسم مبلغا يختلف باختلاف بيئته وأحواله . فمن الخير أن يغتنم القائمون بأمور الإصلاح فى الشعب هذه الفرصة المواتية فيجمعوا من كل فرد ممن تجود نفسه قرشا واحدا يسمونه (قرش العيد للإصلاح الاجتماعى) ثم يشيدوا من مجموعه معهدا أو ملجأ أو مستشفى أو مصنعا أو شبه ذلك من المؤسسات الاجتماعية . وإننا إذ نفعل ذلك نكون قد استعنا على إصلاح الشعب بأموال الشعب وجهوده ، ونكون قد انتفعنا بهذه العاطفة فى تقدمه ورفاهيته، وعودناه على الاضطلاع بنصيبه منهما . وأهم من ذلك نكون قد حولناه عن فكرة خاطئة ظلت أزمانا طويلة مسيطرة على عقليته ، وهى تحميل الحكومة مسئولية إصلاح الشعب فى شتى نواحيه ، تلك الفكرة التى وقفت فى طريق نهوضه ورقيه ، وتحللت منها شعوب أدركت خطأها فبلغت مناها من التقدم والكمال ؟

أبو الوفا المراغى

روعة البيان القرآنى

يقـولون إن السبب فى نشأة عـلوم البلاغة ، اشتداد الخصومة بين العلماء ، فى آخـر القـرن الثانى ، على إعجاز القـرآن ، وهل ذلك الإعجاز يرجـع الى اللفظ أم الى المعنى ، وقد اضطرب عبد القاهر الجرجانى وغيره ، فى أن مزية الـكلام فى جرسه ومقاطعه الصوتية ، أم فى معناه السامى السرى ، كأن الألفاظ أشبه بالمنازل ، تزهى بالسكان لا بالبنيان ، وتشرف بالقطان لا بالحيطان ؛ فلما جاء السكاكى بعد هؤلاء جميعا ، أراد أن يوفق بينهم ، فقال « البلاغة راجعة الى اللفظ ، باعتبار إفادته المعنى بالتركيب » . ولم يكونوا يقصدون بذلك ، رحمهم الله ، إلا أن يكشفوا للناس عن معانى الحسن فى هـذا الـكتاب ، ليتبين لهم أنه « كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » ، فقالوا : فصل ووصل ، وإيجاز وإطناب ، وتقديم وتأخـير ، وتعريف وتنكير ، وما شا كل ذلك ، مما بحثوا فيه وتعرضوا له ؛ وإن تصدوا للروعة فى مثل « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض المـاء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقـوم الظالمين » ، عزوا ذلك الى قواعدهم ، وأخضعوه لقوانينهم ، من بناء الفعل لغير فاعله ، وخطاب ما لا يعقل ، وإضمار السفينة ، « واستوت على الجودى » ، كأن اشتهار الحادثة ، صار بحيث لا يحتاج الى الذكر . وأنت ربما صغت كلاما على هـذا المنوال ، فيه أبواب « المعانى والبيان » كلها ، ثم نظرت فوجدته ، لا يساوى أقصر آية من القرآن ، وفى هـذا دليل على أنه لا يسبر غوره ، ولا تدرك غايته ، أو تستطيع أن تحد من جماله ضوابط ومقاييس ، وكيف يقيس المتناهى ما لا يتناهى ، أو يزن هذا الميزان القاصر ، ذلك المعنى الباهر ؟

ولولا ذلك لما تحدى الله به « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . ونحن نعلم أنهم أرتج عليهم ، فلم يجدوا طريقا يسلـكونه ، سوى التخبط فى اللجاج ، وامتطاء الهجاج ، حتى وصلوا الى ادعاء أنه مكذوب مفترى ، فأرخى الله لهم العنان ، أن يأتوا بمثله مختلقا متقولا ، فلما نـكصوا ، قال : « فاتوا بعشر سور مثله مفتريات » ، فلما عجزوا تدلى معهم الى أدنى من هذا كله « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله ، وادعـوا شهداء كم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للـكافرين » .

ولا يستطيع كائن من كان أن يقول : إن العرب لم يتغلغل فى نفوسهم أن القرآن كلام بلغ أسمى درجات البيان ، فهم قوم قد وهبوا من سلامة الفطرة ، ما يؤهلهم الى رؤية الواقع وتقديره التقدير الصحيح ، ولـكنهم كما تقول الآية « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » .

ومن روعة البيان القرآنى ، أنه يصل الى مجرى الدم من الإنسان ، فإذا هو كالنشوة التى تتمشى فى المفاصل تمشى البرء فى السقم ، وقد يثمر تأثيره ، ويجدى بيانه ، أو لا يثمر ولا يجدى ، فهو أشبه بالماء يصيب الأرض الموات ، ثم يختفى فى جوفها فتنكره ، ولا يظهر له أثر ، أو يحييها بعد موتها ، فتنبت من كل زوج بهيج . وقد استمع الوليد بن المغيرة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » ، فقال : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر !

وقصة إسلام عمر بن الخطاب ، أصدق مثل لروعة هذا البيان ، وشدة تأثيره على القلوب ، واجتذابه للنفوس . فقد جاء الى أخته ، حينما بلغه ، أنها وزوجها اتبعا محمدا فى دينه « الجديد » ، وأن خباب بن الأرت ، يعلمهما القرآن ، وكان مما قاله لها : ياعدوة نفسها ، قد انتهى الى أنكما صبأتما ، فقالت له : ماكنت فاعلا فافعل ، إننا نرى الحق فى غير دينك . فضربها هى وزوجها ، ثم نظر الى جانبه فوجد شيئا مما كانا يهيمان به من القرآن ، فلما أراد أن يأخذه ليقرأ منه ، قالت أخته : « لا يمسه إلا المطهرون » ، فتوضأ وأخذ يقرأ فى سورة « طه » الى أن بلغ « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة آتية أكاد أخفيها ، لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ، واتبع هواه فتردى » . هنالك خيل اليه أن القيامة قد قامت ، وأن الناس مجتمعون ليوم العرض ، يجتازون الصراط ، لتجزى كل نفس بما تسعى ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ... فقال : دلونى على محمد ، فقال خباب ـ وكان مختفيا فظهر ـ أبشر يا عمر فإنى أرجو أن يكون الله قد استجاب فيك دعوة الرسول « اللهم أعز الاسلام بأحب العمرين اليك » ـ ابن الخطاب ، أو عمرو بن هشام « أبو جهل » ـ ثم ذهب الى النبى صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم ، فلما أحس به المسلمون وجلوا وخافوا ، إلا حمزة بن عبد المطلب ، فانه قال : إن يرد الله به خيرا ، يكن على هذا الدين ، وإن يرد غير ذلك ، يكن قتله علينا هينا . أما النبى فإنه أخذ بمجامع ثوبه ، وحمائل سيفه ، وقال له : أما أنت منته ياعمر ، حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ، ما أنزل بالوليد بن المغيرة ؟! فقال عمر : أشهد أنك رسول الله ! وأسلم بين تكبير المسلمين وفرحهم ، ولم يسعهم إلا أن يطوفوا به الكعبة ، ابتهاجا بما غنموا ، وسرورا لما لاقوا .

وكفار مكة اجتمعوا على إخراج أبى بكر منها ، يوم أن لاقاه ابن الدغنة ، آخذا طريقه الى الحبشة ، فأرجعه وأجاره ، وقال له : ياأبا بكر ، مثلك لا يخرج ولا يُخرَج ، إنك رجل تكسب المعدوم ، وتحمل الكلّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الزمن ... ولم يكن اجتماعهم هذا لأن الرجل نالهم بسوء ، أو ألحق بهم أذى ، أو كاد لهم كيدا ؛ اللهم إلا

أنه كان يقرأ القرآن ، فتلتف حوله نساؤهم ، وصبيانهم ، يستمعون إليه ، فيجدونه « يهدى للتى هى أقوم » فلا يلبثون أن يثوروا على الأصنام ، ويسفهوا من كان يعبدها ، ثم يعلنوا انضواءهم الى لواء محمد وأصحابه . . . وهكذا كنت ترى الواحد منهم – ما بين عشية وضحاها – يفرق الله بينه وبين أخيه ، وأمه وأبيه ، وعشيرته وبنيه . . .

والله سبحانه وتعالى يثنى على من آمن من النصارى ، ويمدحهم ، ويعتبرهم أقرب الناس مودة من المسلمين ، لأن من أوصافهم التى امتازوا بها ، أنهم لا يستكبرون ، وإذا آمنوا رأيت أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : « ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟ » .

ولا غرابة فقد اهتدت به الجن ، حين استمعت إليه ، فقالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا ، وأنه تعالى جدُّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ! » .

وليس بعد بيان الله فيه ، ووصفه لهذه الناحية منه « تَقْشَعِرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » ، « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » ؟

ابراهيم على ابو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

من ينبوع النبوة

قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقعدوا على ظهور الطرق ، فإن أبيتم فغضوا الأبصار ، وافشوا السلام ، واهدوا الضلال ، وأعينوا الضعيف .

وقال : ألا أنبئكم بشر الناس ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : من أكل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده .

ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : من يبغض الناس ويبغضونه .

وقال : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

مقارنة ومفاضلة

بين الشريعة الاسلامية والشرائع الأخرى

— ٥ —

الشريعة الانجلوسكسونية

تكلمت فى المقالات السابقة عن الشريعتين الاسلامية والرومانية ، وبينت بعض ما بينهما من الفروق ، وما تمتاز به الشريعة الاسلامية من سمو فى جميع نواحيها .

واليوم أذكر شيئا يسيرا عن الشريعة الانجلوسكسونية . فهى تتشابه فى تاريخها مع كثير من تاريخ شريعة الرومان . فالاثنتان بقيتا أمدا طويلا . فالرومانية نشأت فى القرن الخامس قبل الميلاد وانتهت فى القرن السادس بعده ، وهذه نشأت عام ٤٤٩ الى عام ١٠٦٦ ؛ وانتشار العمل بكل منهما يكاد يكون واحدا ، والاهتمام الذى يقوم به الباحثون فى القانون الانكليزى تكاد تقابله العناية بالقانون الرومانى ، ولكن تطور القانون الرومانى كان مبنيا على مبادىء علمية ، ونظريات فلسفية ، أما القانون الانكليزى فقد كان أكثره مبنيا على اعتبارات وظروف عملية ، وقد مرت عليه صور أربعة ، أولها صلتية وهى صفة القبائل التى كانت متوطنة فى الجزيرة البريطانية قديما ، ثم زالت كلها وحل محلها القانون الرومانى عند ما فتحها الرومانيون سنة ٥٥ قبل الميلاد . واستمر فيها أربعة قرون الى أن زال سلطانه بزوال الفتح الرومانى ، وحلت الصورة الجرمانية مع الفتح الانجلوسكسونى الذى قضى على كل أثر رومانى من دين ولغة وقانون . ثم حلت الصورة الرابعة للقانون الانكليزى وهى صورة نورماندية مستعارة من قوانين قبائل الفرنك ، ومن نظمهم الاقطاعية . وذلك لما احتل النورمانديون انكلترا .

يقرر المؤرخون أن الفتح الانجلوسكسونى هو أول فتح قانونى فى الجزيرة البريطانية ، تلك الجزيرة التى كانت حياة سكانها الأصليين حياة ساذجة قائمة على فلاحة الأراضى واستغلال الغابات تعبيدا للزراعة ، وتربية الدواب ، وكانت قوانينهم عنيفة بربرية تسوى بين الرجل والمرأة ، وكانوا على غير شىء من الحضارة الاجتماعية .

أما نظامهم الاجتماعى فقد كان قائما على تقسيم المجتمع الى طبقتين : طبقة الأحرار ، وطبقة العبيد ، وطبقة الأحرار الى طبقتين : طبقة اللوردة أو النبلاء ، وطبقة التابعين للنبلاء ؛ أما الحر الذى ليس له نبيل ينتمى إليه فقد كان يعتبر شريدا مشتبها فى أمره . أما طبقة العبيد أو الأرقاء

فقد كانت تشبه طبقة الرقيق عند قدماء الرومان ، وكانوا يستعملون للخدمة وللاتجار بهم كالسلع حتى القرن الثانى عشر ، وكان بعض الأحرار يلقون بأنفسهم للرق جريا وراء الارتزاق ، وكان العتق يستعمل كوسيلة للإحسان أو التعبد ، وكان المالك للرقيق إذا أساء إليه بقلع عينه ، أو خلع سنه ، أو قتله ، يؤدى غرامة للملك .

أما نظام الأسرة فقد كان يختلف عن نظام الأسرة الرومانية فى شيئين : الأول أن الولد لم يكن خاضعا لسلطة أبيه طول حياته ، بل كانت تنتهى تلك السلطة ببلوغه درجة الرجولة وانخراطه فى سلك الأحرار ، والثانى أن الأسرة تشمل القرابة من الأبوين لا من الأب وحده ، ثم كانت المصالح بين الأقارب مشتركة مثل الأخذ بالثأر ، وقبض الدية ، وتحمل الدية الناشئة عن جناية أحد أفراد الأسرة ، إلا إذا تبرءوا منه فلا ثأر ولا دية عليهم .

أما النظام القضائى فقد كان سلطان الدولة معدوما فى إدارة العدل ، وما كان للملك أن يرقب سلطان العدل بين الناس ، وإنما كانت له سلطة قضائية استثنائية يلجأ إليها الفرد إذا فشل فى دعواه أمام المحكمة الشعبية ، أو إذا لاذ خصمه بجاه نبيل . وما كانت هناك تفرقة بين القضاء المدنى والقضاء الدينى ، فقد كان الأسقف يجلس فى محكمة المقاطعة ويشترك فى الفصل فى المسائل المدنية بموافقة السلطة الزمنية ، ويغلب أن يكون هو العضو الوحيد الذى يملك قسطا من العلم والدراية فى إدارة العدل ، وكانت المجالس الدينية هى التى تنظر فى النزاع الحادث بين الكنيسة وبين الأفراد .

أما المحاكم فكانت على نوعين : محاكم عامة ، ومحاكم خاصة ؛ فالمحاكم العامة كانت تنعقد فى الهواء الطلق ، وهى محكمة المقاطعة ، وتنعقد مرتين فى العام ؛ ومحكمة المائة وتنعقد فى كل أربعة أسابيع مرة ؛ وكل من هاتين المحكمتين مشكل من أفراد الشعب تحت رياسة زعيم المقاطعة ، وتصدر الأحكام بطريقة الاقتراع ، ولم يكن الخصوم ملزمين بالحضور أمامهما ولا بتنفيذ قراراتهما ، وكل ما فيه أن المتخلف يعتبر خارجا على القانون ، فيحرم من حمايته وتنعدم تبعة قتله .

أما المحاكم الخاصة فهى التى يعقدها النبلاء فى بيوتهم لإقامة العدل بين تابعيهم ؛ من هذه المحاكم المحكمة التى يعقدها الملك للفصل بين من يرتكبون أمورا مخلة بأمان الملك .

أما طرق الاثبات فى الدعاوى فقد كانت ساذجة ومعقدة بالشكليات ، لا تتصل بالحق فى ذاته ، وكانت فى الشريعتين الرومانية والانجلوسكسونية على أنواع ، منها القسامة ، وهى أن يستعين أحد الطرفين من المتخاصمين بأحد عشر رجلا من أهله أو جيرانه يقسمون معه على صحة دعواه أو دفاعه ؛ فان أقسموا اعتبر الحق فى جانبه ، أى أن عبء الاثبات كان على من يقوم به ، لأن اليمين حاسمة للدعوى ، فان كانت اليمين كاذبة ففى غضب الآلهة من الترضية ما يكفى الخصم

الآخر ، والمحكمة نفسها هي التي توجه الاثبات بالقسامة الى من ترى من الخصوم بحسب ظروف كل قضية .

ومنها الامتحان أو التجربة ، فقد كانت تلقيه المحكمة على من ترى من طرفى الدعوى أيضا ، ويتبع فى غالب الاحيان فى المسائل الجنائية ، ويكلف به المتهم أحيانا ، وهو أن يمتحن باحدى التجارب التى يعتقدون أن لقوة الآلهة دخلا فيها ، فيقبض المتهم بيده على حديد محمى ، أو يخطو خطوة بقدمه على خشب مضطرم ، ثم يضمد القسيس جرحه بطريقة مخصوصة ، فإن شفى فى ثلاثة أيام فهو برىء ، وإلا فهو مجرم ؛ أو أن يمتحن بأن يضع يده فى ماء مغلى ، ثم يضمدها القسيس كما فى حالة التجربة بالنار ، فإن شفى فى الثلاثة الأيام التالية كان بريئا ، وإلا كان مذنبا ؛ أو أن يمتحن بأن يلقى مكتوفا فى النهر ، فإن عام فهو مذنب وإن غطس فهو برىء ؛ كذلك يمتحن بتناول القطعة اللعينة أو لقمة الزقوم ، وهى قطعة من الخبز الجاف يعدها القسيس ، ثم يدعو الآلهة بأن توقفها فى حلقه إن كان مذنبا ، أو يسيغها بسهولة إن كان بريئا . ويقال إنها وقفت فى حلق أحد كبار النبلاء فحكم بإدانته .

وأما المبارزة القضائية أو المصارعة فلم يكن الغرض منها الاحتكام الى القوة ، وإنما هم يعتقدون أن الآلهة تنصر المحق على المبطل ؛ فالفائز يفوز بعناية الآلهة لا بقوته البدنية . ولما كانت النساء والعجزة لا يقوون على المصارعة فقد سمح بالاستعانة بأنصار ينوبون عنهم ، وكان الشهود يصارع بعضهم بعضا إذا تعارضت أقوالهم ، أو أنكرت عليهم أيمانهم ، حتى إن بعض الخصوم أخذوا يلجأون الى الاستعانة بالأنصار ويقدمونهم فى صورة شهود ؛ وقد استمرت هذه الطريقة فى انكلترا الى سنة ١٨١٩ حيث صدر فى تلك السنة قانون بالغاء المصارعة على أثر الحكم ببراءة متهم ، إذا رفض المدعى أن يصارعه .

أما إجراءات المصارعة ، فقد كان المدعى عليه أو نصيره يعرض أنه سيدافع عن حقه بذراعه ، فيلقى بقفازه على الأرض ، فيلتقطه المدعى أو نصيره ، دلالة على قبول المصارعة التى يحدد لها يوم فى مكان تنصب فيه منصة للقضاء ، ثم يأتى الخصوم أو أنصارهم فى الموعد المحدد وقت الشروق بلباس خاص ، وسلاح كل منهما هراوة طولها ذراعان ومجن (أى درقة) ؛ ولم يكن غرض أحدهما قتل الآخر . ويحلف كل خصم بالله على صحة دعواه ، ويشهده على أنه لم يأكل ولم يشرب شيئا يؤثر فى المصارعة ، ولم يلبس تميمة ، ولم يتعوذ بعوذة تحول دون إظهار الحق ، ثم يأخذان فى المصارعة ؛ فان غلب أحدهما الآخر يحكم للغالب ، وإن لم يتفوق أحدهما على خصمه حتى غروب الشمس وظهور النجوم يحكم للمدعى عليه أو للمتهم باعتبار أنه لم يغلب .

هذه هى طرق الاثبات فى الشرائع غير الاسلامية ؛ وإنها لطرق عقيمة خرافية ، إذ كيف

لا تحترق يد رجل أقدم على الامتحان بالقبض على النار ؟ أو كيف لا يؤثر الوهم على من يتناول لقمة الزقوم فيقف فى حلقه ، وكيف يفوز ضعيف القوة البدنية على الممتلئ قوة وصحة ؟ وكيف لا تنتشر الفوضى وتتزعزع أركان الأمن إذا كان الوصول الى الغرض المطلوب يمكن أن يكون بالاعتماد على الذراع أو على قوة الأنصار أو الشهداء الذين لا يسمح للخصم بأن يناقشهم الشهادة ، ولا يسمح له بسؤالهم عن مصدر علمهم بما شهدوا به عليه ؟ وكيف لا يظلم برىء إذا كانت هذه طرق الاثبات ؟ وكيف لا يضيع حق ويفلت مجرم من عقاب ؟ حقا إنهم كانوا فى ظلام وفى جهل عريض . فهل فى الشريعة الاسلامية خرافة واحدة من مثل هذا ؟ وهل نجد محلا للمقارنة أو المفاضلة ؟

ألم تر أن السيف ينقص قدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

هذه كلمة قصيرة ذكرناها عن الشريعة الانجلوسكسونية ، وفى العدد التالى سنأتى بالكثير من المقارنات ليتبين الغث من السمين ؟

مصطفى عبد الحميد أبو زيد
المندوب القضائى بالأوقاف الملكية سابقا

بم يسود المرء

قال الحكماء : يسود الرجل بأربعة أشياء : بالعقل ، والأدب ، والعلم ، والمال .

وقيل لعرابة الأوسى : بم سودك قومك ؟

قال: بأربع خلال : أنخدع لهم فى مالى ، وأذل لهم فى عرضى ، ولا أحقر صغيرهم ، ولا أحسد كبيرهم .

نقول : قوله : أذل لهم فى عرضى ، ليس مراده من العرض ما يفهم منه اليوم من تخصيصه بحرم الرجل ، ولكن مراده ما تعطيه اللغة على إطلاقها قبل التخصيص الأخير ، وهو النفس ؛ يقولون : أكرمت عنه عرضى أى صنت عنه نفسى ؛ ومن معانيها موضع المدح والذم من الانسان ، وما يفتخر به من شرف وحسب ؛ ومن معانيها ما خصص له الآن من حرم الرجل . فراد عرابة الأوسى من قوله : وأذل لهم فى عرضى ، أنه يحتمل منهم لو خاضوا فى ذمه والنيل منه . وفى عرابة هذا الذى كان يذل لقومه يقول الشماخ الشاعر :

رأيت عرابة الأوسى يسمو   الى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد   تلقاها عرابة باليمين

المتألهون والادب

عدى بن زيد العِبادى

ومن المتألهين الشعراء الكتاب ، عدى بن زيد بن حماد (١) التميمى المضرى ، يكنى أبا عمير ، ويلقب بالعِبادى (٢) ، كان متألها فى الجاهلية ، متعففا فى شعره ، لم يُستَهتَر بالفواحش ، ولم يتهكم فى الهجاء .

نشأ بالحيرة عاصمة العراق على ضفة الفرات ، وكان للفرس النفوذ على ملوكها المناذرة ؛ فلم تكن الحيرة خالصة للعرب ، بل كانت لهم ولغيرهم من شعوب كثيرة ، يؤمونها للتجارة والإقامة ؛ وكانت قاعدة لقرى مُمْرِعة الجَنَاب ، خصبة التربة ، مما جعلها تختال فى حلل الخفض ، وتميس فى نعيم الحضارة ؛ فمن سعة فى العُمران ، وعظمة فى البنيان ، الى كثرة فى المدارس والبِيَع والمتاجر ودور اللهو والشراب ، مما جعل العرب يتغنون بمحاسنها ، ويغرمون بمفاتنها ، حتى قالوا : « يوم وليلة فى الحيرة خير من دواء سنة » . وقد كان لقصرى الخورنق والسدير حظ غير يسير من وصف الشعراء .

وترجع إقامة آل عدى بالحيرة الى جده أيوب بن محروف : كان منزله باليمامة فأصاب دما فى قومه ، فهرب لاحقا بأحد أصهاره فى الحيرة ، فأكرم وفادته ، وأعطاه مالا ، واتصل بالملوك الذين كانوا بالحيرة ، فعرفوا حقه وحق ابنه زيد بن أيوب ؛ فلما مات أيوب وشب ابنه زيد تزوج امرأة من أصهار أبيه فولدت له حمادا ، ثم قتل زيد فى قتيل أبيه ، فمكث حماد فى أخواله حتى ناهز البلوغ ، ثم حولته أمه الى دار أبيه ، وعلمته الكتابة ، فبرع فيها حتى صار كاتب ملك النعمان الأكبر ، فمكث وولد له ابن سماه زيدا ؛ وكان لحماد هذا صديق من الدهاقين (٣) العظماء يقال له « فروخ ماهان » ، فلما حضرته الوفاة أوصى بابنه زيد الى الدهقان ، فأخذه إليه فكان عنده مع ولده ، وكان زيد قد حذق الكتابة العربية ، فعلمه الدهقان الفارسية ، وأشار على كسرى أن يجعله على البريد ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة (٤) فمكث يتولى ذلك زمانا حتى مات النعمان ، فاختلف أهل الحيرة فيمن يولونه الى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ، فأشار عليهم المرزبان بزيد بن حماد ، فكان على الحيرة الى أن مَلَّكَ كسرى المنذر بن ماء السماء ، وولد لزيد ولد فسماه عديا .

---

(١) ويروى جمّاز وحمّار . (٢) نسبة الى العِباد وهم قوم من قبائل شتى قد اجتمعوا على النصرانية وأنفوا أن يتسمّوا بالعبيد وقالوا نحن العِباد . (٣) الدهقان بكسر الدال وضمها : زعيم فلاحى العجم ، ورئيس الاقليم ، معرب ، جمعه دهاقنة ودهاقين — قاموس .

(٤) المرزبة كمرحلة : رياسة الفرس ، وهو مَرْزُبانهم ، جمعه مرازبة .

نشأته : لما ترعرع عدى وحذق الكتابة ، أرسله المرزبان الى كتاب الفارسية فتعلمها ، وقال الشعر ، وتعلم الرمى بالنشاب (١) فخرج من الأساورة الرماة ، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالجة وغيرها ، فبلغ أمره كسرى ، فأرسل اليه ، فلما كلمه وجده أظرف الناس وأحضرهم جوابا ، فرغب فيه وأثبته فى ديوانه ، فكان أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى ، فرغب أهل الحيرة الى عدى ورهبوه ، فلم يزل بالمدائن فى ديوان كسرى يؤذن له عليه فى الخاصة وهو معجب به قريب منه ، حتى بعد صيته ، وارتفع ذكره ، فكان إذا دخل على المنذر قام له جميع من عنده إجلالا . ولقد بلغ من علو مكانته لدى كسرى أن بعث به الى ملك الروم بهدية ، ولما مر بدمشق أثار جمالها كوامن نفسه ، فكان أول شعر قاله هناك :

رب دار بأسفل الجزع من دو ... مة أشهى الىّ من جيرون
وندامى لا يفرحون بما نا ... لوا ولا يرهبون صرف المنون
قد سقيت الشمول فى دار بشر ... قهوة مرة بماء سخين

فلما رجع الى كسرى وعلم بوفاة أبيه زيد استأذنه فى الإلمام بالحيرة فأذن له ، فتوجه اليها ، وبلغ المنذر خبره فخرج فتلقاه فى الناس ورجع معه ، وأكب على الصيد واللهو ، وتزوج هندا بنت النعمان بن المنذر أو أخته ، على خلاف فى ذلك ؛ فلما مات المنذر بن النعمان وترك اثنى عشر ذكرا من بينهم النعمان بن المنذر منقطعا الى عدى ، فسعى له عدى حتى قلده كسرى مُلك العراق من بين إخوته ، ثم جدّت أمور جعلت النعمان يتبرم بعدىّ ويغضب عليه ، فحبسه ونسى ما قدمه له من الخدم ؛ فجعل عدى يرسل اليه الشعر ويرققه ، فيأبى النعمان إخراجه من حبسه ؛ فكان أول ما قاله فى محبسه من قصيدة :

أين عنا أخطارنا المال والأنفـ ... ـس إذ ناهدوا ليوم المحال
ونضالى فى جنبك ، الناس يرمو ... ن وأرمى وكلنا غير آل
فأصيب الذى تريد بلا غشـ ... ـس وأربى عليهم وأوالى
ليت أنى أخذت حتفى بكفى ... ولم ألق ميتة الأقتال
محلوا محلهم لصرعتنا العا ... م فقد أوقعوا الرحا بالثفال

ومما قال أيضا فى محبسه :

ألا من مبلغ النعمان عنى ... وقد تهوى النصيحة بالمغيب
أحظى كان سلسلة وقيدا ... وغلاً والبيان لدى الطبيب
أتاك بأننى قد طال حبسى ... ولم تسأم بمسجون حريب
وبيتى مقفر إلا نساء ... أرامل قد هلكن من النحيب

(١) النشاب بضم النون : النبل ، الواحدة بهاء ، وبالفتح مُتَّخِذُه .

إلى أن قال ، وهو آية فى الاعتذار تبلغ الى أقسى القلوب :

فإن أخطأت أو أوهمت أمرا فقـــد يتهم المصافى بالحبيب
وإن أظلِم فقـــد عاقبتمونى وإن أُظلمَ فذلك من نصيبي
فهل لك أن تدارك مالدينا ولا تغلب على الرأى المصيب
فأنى قـد وكلت اليـوم أمرى إلى رب قريب مستجيب

ولكنها لم تستل سخيمة النعمان ، ولم تخفف من غضبه .

فلما طال سجنه ، كتب الى أخيه أبى وهـو مع كسرى بهذا الشعر يستنجده :

أبلغ أبيـــا على نأيه وهل ينفع المرء ماقـــد علم
بأن أخاك شقيق الفـؤا د كنت به واثقا ماســـلم
لدى ملك موثق بالحديـــد إما بحـــق وإما ظلم
فأرضك أرضك إن تأتنا تنم ليـلة ليس فيها حـــلم

فكتب اليه أخوه أبى :

إن يكن خانك الزمان فلا عا جز باغ ولا أليف ضعيف
ويمين الإله لو أنهم جا ءوا طحونا فيها تضىء السيوف
ذات رزء مجنابة غمرة المو ت صحيح سربالها ملفـوف
كنت فى حميها لجئتك أسعى فاعلمن لو سمعت إذ تستضيف

الى أن قال :

ولعمرى لئن جـزعت عليه لجـزوع على الصديق أسـوف
ولعمرى لئن ملـكت عزائى لقليل شرواك فيما أطـوف

ثم دخل أبى على كسرى وكلمه فى أمر عدى ، فكتب كسرى الى النعمان بعزيمة ليرسلن به اليه ، فبعث النعمان الى عدى سرا فغمه وقتله ، وبعث الى كسرى أنه قد مات ، فلم يزل ابن عدى يبغى للنعمان الغوائل انتقاما لأبيه حتى قتله كسرى أبرويز وانقرض ملك اللخميين .

فتلك النشأة الثقافية الحضرية ، وهذه التربية العالية السامية ، وهذه المخالطة لملوك الفرس والعراق والاضطلاع بأعباء سياستهم ، وهذا البيت الذى انحدر منه عدى ، وهذه الحياة اللاهية الطروب ــ كان لها أبعد الأثر فى توجيه عدى وجهة أخرى ليست على غرار ما كان عليه شعراء الجاهلية فى عصره . ذلك ما سنعرض له فى حياته الأدبية . ويجمل بنا قبل التحدث عن عدى الشاعر الكاتب أن نعرض لناحيته الدينية ، فقد كان لها أعمق الأثر فى شعره ؟

احمد ابراهيم موسى

الفيلسوف ابن طفيل

حياته :

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي . تبوأ منصب الوزارة فى عهد أبى يعقوب يوسف بعد أن كان يشغل منصب الحجابة فى غرناطة . ولد فى مدينة قادس بالأندلس ، ومات فى مراكش عاصمة دولة الموحدين فى ذلك الوقت عام ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) . ويلوح للمؤرخ أن حياة الفيلسوف ابن طفيل لم تكن حافلة بالتقلبات ، فقد كان شغفه بالكتب والاطلاع عليها أكثر من حبه للناس . وفى مكتبة مليكه أبى يعقوب تزود بالكثير من العلوم والمعارف ، وكان ميله الى التأمل أكبر من ميله الى التأليف .

وفى عصر ابن طفيل كانت الفلسفة فى المغرب فى أوج قوتها ، حيث أدخل الموحدون مذهب الأشعرى ومذهب الغزالى فى مراكش ، بعد أن كانا حتى ذلك الحين موسومين بالزندقة ، وكان للموحدين عناية بالمذاهب الكلامية ، والعلوم العقلية ، الأمر الذى جعل الفلسفة تزدهر زمنا فى قصورهم وفى دور العلم بينهم .

وفى كتاب (المعجب ، فى تلخيص أخبار المغرب) للمراكشى ص ١٧٢ ، نرى أن ابن طفيل كان أكبر أمله أن يمزج العلم اليونانى بحكمة أهل المشرق ليطالع الناس برأى جديد فى الكون ، وقد أثار اهتمامه أيضا أمر العلاقة بين الفرد والمجتمع ، والى أن منشأ الجماعة هو الفرد ، كما يتبين هذا بوضوح فى قصته المسماة حى بن يقظان .

وقصة ابن يقظان التى وضعها ابن طفيل ، قصة فلسفية ذاع صيتها ، وانتشرت فى أوروبا انتشاراً واسعا ، فترجمت الى اللاتينية والانجليزية والألمانية والهولندية تحت عناوين مختلفة فى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن السابع عشر ، وطوال القرن الثامن عشر .

والفكرة الأساسية فى هذه القصة ، كما يقول « برونل » فى مقدمته لتلخيصها ، هى بيان كيف يستطيع الانسان دون معونة من خارج أن يتوصل الى معرفة العالم العلوى ، ويهتدى الى معرفة الله وخلود النفس . وابن طفيل يتخذ من حى بن يقظان شخصا لبسط آرائه الفلسفية .

يتكون مسرح هذه القصة من جزيرتين : يضع ابن طفيل فى إحداها المجتمع الانسانى بما تواضع عليه من عرف وتقاليد وأوضاع ، ويضع فى الثانية إنسانا ينشأ على الفطرة . ويظهر فى المجتمع فتيان من أهل الفضل ، يسمى أحدهما « سلامان » والآخر « آسال » يسموان الى المعرفة العقلية ، والتغلب على الشهوات ؛ فأما الأول فبعقله ينزع نزعة عملية ، فهو يساير دين العامة حتى يتوصل الى السيطرة عليهم ، وأما الآخر ففطرته متجهة الى النظر العقلى

وفيه نزعة صوفية ؛ فهو يرتحل الى الجزيرة المقابلة ظنا منه أنها غير مسكونة ، وفيها ينقطع الى الدرس والزهد .

ترعرع حى بن يقظان فى هـذه الجزيرة حتى صار فيلسوفا كاملا ، وكان قد قذف به الى أرضها طفلا . توصل حى أولا الى حاجاته المادية ، ثم استطاع بالملاحظة والتفكير أن يعرف الطبيعة والسماء ، ويعرف الله ، ويعرف نفسه ، الى أن وصل على رأس التاسعة والأربعين الى الله . عند ذلك لقيه آسال ، ولم يكن حى يعرف اللغة فى أول الأمر ، ولـكن بعد أن استطاع كل منهما أن يتفاهم مع صاحبه تبين أن فلسفة وشريعة آسال صورتان لحقيقة واحدة . ولما عرف حى أن فى الجزيرة المقابلة لجزيرته أمة بأسرها لا تزال تتخبط فى ظلمات الجهل ، صحت عزيمته على أن يذهب الى أولئك القوم ويكشف لهم عن الحقيقة . فعلمته التجربة أن العامة لا قدرة لها على إدراك الحقيقة مجردة ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم أصاب إذ أبان لهم الحقيقة بضرب الأمثال الحسية ولم يكاشفهم بالنور الـكامل . وبعد أن انتهى الى هذه النتيجة ، عاد أدراجه مع صديقه آسال الى جزيرتيهما الخاليـة ، ليعبدا ربهما عبادة روحيـة خالصة ، حتى يأتيهما اليقين . (تاريخ الفلسفة فى الاسلام تأليف الأستاذ ت . ج دى بور) .

بهذا وصل ابن طفيل الى أن كمال الإنسان هو فى إعراضه عن كل ما هو محسوس ، وانغماره فى العقل الـكلى فى سكون وخلوة لا يكدرها شىء من مطامع هذه الحياة .

والغاية التى كان يبتغيها حى من عمله هو أن يلتمس القدرة فى كل شىء ، وهو يقتصر فى المطالب البدنية على ما توجبـه الضرورة القصوى ، وشعاره الاكتفاء بما يقيم الأود لا ما يؤدى الى النوم .

هذا هو النظام الذى التزمه حى فى مطالب جسمه المادية ، أما روحه فـكانت مرتبطة بالعالم العـلوى ، وهو يتشبه بهذا العالم ويحاول أن يجعل حركاته متناسقة لحركات الأجرام السماوية . وهكذا أصبح حى بالتدريج قادرا على أن يسمو بنفسه ، حتى صار غفلا صرفا ، وهذه حالة لا تستطيع عقولنا إدراكها .

ومن غريب أمر هذه القصة ، التى وصفها ابن طفيل على لسان حى ، أنه لم يكتبها بوحى من نفسه ، وإنما كتبها إرضاء لصديق له ، فنراه يقول فى مقدمة القصة بعد أن حمد الله : سألت أيها الأخ الـكريم الصفى ـ منحك الله البقاء الأبدى ، وأسعدك السعد السرمدى ـ أن أبث اليك ما أمكننى بثه من أسرار الحـكمة المشرقية ... الخ .

فلسفة ابن طفيل :

تتركز فلسفة ابن طفيل فى قصته التى رويناها من قبل . ولهذا الفيلسوف طريقة فى التدليل

بثها فى قصة حى بن يقظان ، تخالف طريقة الاستشهاد ، والذهاب مع الظواهر السطحية ، وقواعد العرف المتفق عليها ؛ فكان هذا باعثا على الالتفات إليها ، والعناية بقراءتها ومناقشتها .

وقد أفلح ابن طفيل فى تبيينه أن البرهان لا ينقض العقائد التى توارثتها الشعوب ، وأشربتها أرواح الجماعات ، من الكتب المنزلة ، ذلك لأن الفطرة هى الإلهام بأن الله واحد .

والقصة توكيد للأصول التى تقوم عليها عقائد الناس ، وتبنى عليها أطوارها وتقلباتها .
فهو يحاول أن يجعل الانسان يتصل بطريق الحس والتجربة الى العقيدة عن طريق الشعور .

والخلاصة فى فلسفة ابن طفيل ، أن للانسان غاية فى الحياة فوق لذاته وآلامه ، وهذه الغاية هى المثل الأعلى .

- شخصية ابن طفيل:

كان ابن طفيل يعتقد أن الفلسفة أقرب الى أن تكون من مواهب النفس ، عن أن تكون ثمرة من ثمرات الدرس والتحصيل . وكان من أولئك الكتاب المرهفين ، ومن المفكرين الذين ينزوون فى برج من العاج لا يعرف إلا عالم الكتب .

أثرت الفلسفة فى نفس ابن طفيل ، فأعرض عن لذات الدنيا وزخارف الحياة ، وعمل على مراقبة نفسه ، واستنقاذ روحه من لوث الأوهام ؛ وأصبح الرجل فى أواخر أيام حياته بعيد النظر ، فسيح الأفق ، ذا عقل مفتوح لمرافق الحياة الروحية على اختلافها وتعددها . هذا الى جانب ما امتازت به روحه القوية الفياضة من جوهر طاهر ، ومعدن كريم ، ومن حب للخير وإيثار للغير . كان مشهودا له بالحزم والتصميم ، وتنفيذ ما صدق عليه عزمه ؟

عبد الحميد سامى بيومى

تصحيح

المرجو إثبات هذه التصحيحات فى مواضعها من هذا العدد .

ص	س	خطأ	صواب
٥٨٢	٤	الجوانح	الجوارح
٥٨٢	٥	وطريقة	وطريقه
٥٨٢	٥	وتخليص	وتلخيص

تطور التصميم والزخرفة فى مساجد مصر

التصميم والزخرفة فى الدولة الفاطمية

— ٢ —

لئن كانت الصورة التى أعطاها لنا الجامع الأزهر عن تصميم المساجد الفاطمية ناقصة بسبب ما دخل على هـذا الجامع من التغيير ، فان الجامع الأنور أو جامع الحاكم بأمر الله قـد احتفظ لنا بهذا التصميم كاملا . وبودى لو أحثكم على زيارته وأن أصحبكم فى جولة اليه كتلك التى صحبتكم فيها الى المساجد السابقة ، ولـكن الحياء يمسكنى لأن رؤيته اليوم تبعث فى النفس الأسى والحزن . فقد اتخذه الصليبيون مقرا لجندهم ، وأقاموا بين جدرانه كنيسة يتعبدون فيها ، كما جعلت وزارة الأوقاف من رواق محرابه مخزنا لسقط متاعها ، وأقامت فى جانبه بناء حديثا (مدرسة السلحدار الابتدائية) لم تمسه يد الفن بعصاها السحرية فبدا عابسا كئيبا ، وتركت الباقى فضاء شاسعا يردد الأسف على ما فعله الخلف بآثار السلف .

يقرب هـذا الجامع فى مساحته من جامع عمرو ، ويشبه فى كثير من تفاصيل تصميمه مسجد ابن طولون ، ويتضمن بعض المظاهر المعمارية التى رأيناها فى الجامع الأزهر ، ولـكنه ينفرد عن هذه الجوامع الثلاثة بواجهة منقطعة النظير ، إذ يقوم فى زاويتها الشمالية والجنوبية برجان أجوفان عظيمان (١) يكسبان الجامع مظهر القلاع الحصينة ، يخرج منهما مئذنتان عاليتان تزدان كل منهما بزخارف بديعـة وكتابة كوفية جميلة تتضمن اسم الخليفة الفاطمى الحـاكم بأمر الله .

أما مدخل الجامع فيقع فى منتصف هذه الواجهة ويبرز عن سمتها بنحو ستة أمتار ، وقد كانت تزينه نقوش محفورة على الحجر غاية فى الروعة والجمال لم يبق لنا منها إلا جزء صغير ، ولقد كان يتوج هذا المدخل لوح من الرخام فقد مع الزمن ، وكان منقوشا عليه بخط كوفى جميل النص الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمـة ونجعلهم الوارثين . مما أمر بعمله عبد الله ووليه أبو على المنصور الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين . فى شهر رجب سنة ثلاث وتسعين وثلثماية » .

---

(١) يتكون كل من البرجين من مكعبين أجوفين يعلو أحـدهما الآخر ، العلوى أصغر من السفلى وأحدث منه إنشاء ، بينما السفلى معاصر لانشاء المسجد .

أما اللوح الذى يرى الآن فوق المدخل فتشير الكتابة التى عليه الى إصلاحات تمت فى المسجد أيام الناصر محمد بن قلاوون .

هـذه الواجهة التى وصفناها تثير رؤيتها فى النفس ذكريات الماضى ، وتبعث فى الذهن بصور من مجد المسلمين الغابر ، تذكرنا بمدينة المهدية ، ومسجدها الجامع ، وبمؤسسها وقومه ، وبالدور الذى لعبه هؤلاء القوم فى الحضارة الاسلامية .

أما المدينة فلإنشائها قصة طريفة تنطق بما كان لأسلافنا المسلمين من بعد النظر فى اختيار مواقع المدن ، وتشهد بأنهم ضربوا فى الحضارة المادية بسهم وافر . فهذا أبو عبيد الله الملقب بالمهدى أول خلفاء الدولة الفاطمية بعد أن استقر به المقام فى افريقية (تونس) أراد أن يؤسس مدينة منيعة الجانب يتحصن فيها من أعدائه ، فخرج الى تونس وقرطاجنه ، يرتاد ساحل البحر ، فوجد جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند ، فبنى فيها مدينة خلع عليها اسمه ، وجعلها دارا للملكه ، واتخذ من ساحلها ميناء بحريا كأحسن وأمنع ما تكون الموانى : حفره فى الصخر بعرض سبعة وخمسين مترا وطول مائة وستة وعشرين مترا ، وجعله بحيث يكفى لايواء ثلاثين سفينة . كما أقام بها دار صناعة (ترسانة) نقرت فى الجبل ، وكانت تتسع لمائتى سفينة (١) .

وأما مسجد المهدية الذى أنشأه المهدى بعد تخطيط مدينته ببضع سنوات ، فقد كانت واجهته مبعث الوحى للمهندس الذى أشرف على إنشاء جامع الحاكم بمصر ، إذ اتخذها أساسا لتصميم واجهة مسجده ، وأدخل عليها من التعديل والتهذيب ما اقتضته سنة التطور (٢) .

وأما القوم الذين اليهم ينتسب أبو عبيد الله المهدى ، فقد تضاربت الآراء فى حقيقة نسبهم . فهم يرون — ويؤيدهم فى هـذا الرأى طائفة من المؤرخين — أنهم من نسل السيدة فاطمة بنت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، ولذلك عرفوا بالفاطميين نسبة اليها ، بينما ينكر عليهم هذا النسب طائفة أخرى . وليس من شأننا هنا تقصى هذه المسألة ، إنما يكفينا أن نعلم أن صحة نسبهم كانت موضع شك ومحل طعن كثير من المسلمين .

أما الدور الذى لعبه هؤلاء القوم فى الحضارة الاسلامية لا سيما فى مصر ، فعظيم جدا ، تشهد به آثارهم التى تركوها ، ولعله كان نتيجة لذلك الشك الذى حام حول أصلهم . ذلك لأنهم عنـد ما أدركوا أن معظم المصريين على المذهب السنى بينما هم على مذهب الشيعى ، وعلموا أن انتسابهم الى بيت النبوة موضع شك وريبة ، أرادوا أن يقربوا مسافة الخلف بينهم و بين القوم

(١) راجع تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٦٥ طبعة مصر سنة ١٣٠١ هـ .

(٢) تتشابه واجهة كل من المسجدين فى أن كلا منهما تتألف من برجين قائمين على طرفى الواجهة ومدخل بارز عن سمتها . وتختلف واجهة جامع الحاكم عن جامع المهدية فى أنها تزدان بزخارف ، وفى أن البرجين فيهما أجوفان .

الذين يحـكمونهم ، فأقبلوا على الحياة العامة يوجهون اليها غاية جهدهم ، ويعنون بها أشد العناية حتى يصرفوا الناس عن التحدث فى أصلهم الى التحدث فى منشآتهم وأعمالهم . فاهتموا بشئون الشعب : حببوه فى طلب العلم بما كانوا يغدقونه على الطلاب من النعم ، وشجعوه على إتقان الصناعة فتقدمت فى أيامهم وازدهرت ، كما راجت التجارة وانتعشت ، وأسرفوا فى الترفيه عنه ، وسهلوا له سبل اللهو بما ابتدعوه من المواسم والموالد والأعياد التى لا نزال نحتفل بمعظمها حتى اليوم . وفى الحق لقد بلغت البلاد بفضل سياستهم هذه أوج الرقى فى أيامهم ، وفاقت مدينة القاهرة جميع العواصم المعروفة فى عصرهم فى الثروة والترف والتقدم المادى .

والآن بعد هذه الوقفة الطويلة أمام الواجهة ندخل الى الجامع لنشاهد ما بقى لنا من آثاره : أمامنا فناء واسع ، به على اليمين بناء حديث ، وعلى اليسار بقايا عقود ، وأسس أكتاف ، وجدران مهدمة . أقبل عليها علماء الآثار بحثا وتحليلا حتى استطاعوا بحذقهم أن يعطونا منها صورة ناطقة لما كان عليه المسجد وقت إنشائه ، فإذا هو شبيه بما تقدم عليه من مساجد : صحن مكشوف تطل عليه أروقة أربعة أوسعها رواق المحراب ، إذ به خمسة بلاطات ، بينما الأروقة الثلاثة الأخرى بكل منها ثلاث بلاطات فحسب . ولقد احتفظ لنا رواق القبلة بالكثير من عناصره . ففيه المجاز المتسع الممتد من الصحن الى المحراب الذى رأينا مثله لأول مرة فى الجامع الأزهر ، وفيه العقود والنوافذ والسقف والأكتاف قائمة فى مكانها حافظة لكيانها . ويدلنا تخطيطه على أن مهندسه كان متأثرا الى حد كبير بتخطيط مسجد ابن طولون : فالعقود محمولة على أكتاف بدلا من أعمدة ، وشكلها فى المسجدين واحد ، وبكل منهما طراز من الكتابة إن اختلفا من حيث الفن فى تصوير الحروف ورسم الكلمات وتباينا من حيث المادة (١) التى كتبا عليها ، فقد اتفقا فى أنهما يتضمنان آيات من القرآن الكريم ، وفى أنهما اتخذا مكانهما تحت السقف مباشرة فى كلا المسجدين .

على أننا نشهد هنا لأول مرة ظواهر ثلاثا جديرة بالعناية . أما الأولى فهى تلك الأوتار الخشبية الممتدة بين الأكتاف وبعضها تحت العقود مباشرة ، والتى تزدان بزخارف محفورة . ولقد ولدت هذه الظاهرة فى بيزنطه قبل الاسلام واستخدمها المسلمون لأول مرة فى أقدم وأجل أثر إسلامى قائم الى اليوم : فى القبة العظيمة التى أقامها عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هـ فوق صخرة بيت المقدس التى كانت أول قبلة اختارها النبى صلوات الله عليه له وللإسلام حينما وصل الى المدينة المنورة ، والتى هى فى الواقع درة فى جبين الآثار الاسلامية جميعا فى الشرق وفى الغرب ، قد توفر حظها من المحاسن ، وأخذت من كل بديعة بطرف ، فى ظاهرها

(١) فى جامع ابن طولون طراز الكتابة محفور على الخشب ، بينما فى جامع الحاكم نراه محفورا على الجص .

وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف، وأكثر ذلك مغشى بالذهب، فهى تتلألأ نورا وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها فى محاسنها، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها. (١)

وأما الظاهرة الثانية فهى تلك القباب التى نرى اثنين منها على طرفى جدار القبلة بينما تقوم الثالثة فوق المحراب. وللمسلمين فى عمل القباب فضل غير منكور، فهم وإن كانوا لم يبتدعوها إذ عرفها المصريون والعراقيون والرومان من قبلهم فى العصور القديمة، ولكنهم أخذوها باليمين من هذه الأمم صغيرة، ساذجة، بسيطة، وردوها باليسار الى العالم، كبيرة، معقدة، جميلة. لقد ساروا بها فى مدارج الرقى خطوات واسعة، وتجلت فى إنشائها براعة بنائيهم، وأكثروا من استعمالها حتى لقد أضحت من المميزات البارزة فى العمارة الإسلامية، وهذه القباب الصغيرة التى نشهدها فى جامع الحاكم تمثل لنا الخطوة الأولى للقبة المصرية الاسلامية، فهى تقوم على مربع أنشئ فى كل من زواياه الأربع من أعلى كوة غير نافذة، فانقلب هذا المربع بذلك الى مثمن أمكن للقبة أن تستقر عليه بسهولة. (٢) وسنرى فى خلال هذا البحث كيف تمت هذه القبة الصغيرة وتطورت حتى استدار هلالها بدرا فى عصر السلطان الغورى.

وأما الظاهرة الثالثة فتبدو فى الزخرفة الرائعة التى يزدان بها هذا المسجد، سواء فى مئذنتيه أو واجهته أو نوافذه، فلقد ظهرت فيه الزخرفة النجمية الشكل التى تعتبر من مميزات الفن الإسلامى فى أبسط صورها ممثلة فى نجمة ذات ثمان شعب، وسنرى أن هذا الضرب من الزخرف قد تعقد وتطور فيما بعد، حتى لقد ارتفع عدد الشعب الى عشر واثنتى عشرة بل وأكثر من ذلك، وزخارف الواجهة المنقوشة على الحجر تدل على أن الفن المصرى الاسلامى قد خطا الى الامام خطوة واسعة اكتملت بها شخصيته، وشبابيك الجص التى تسد النوافذ بعد أن كانت زخارفها هندسية قوامها دوائر متشابكة كما هو الحال فى مسجد ابن طولون قد أصبحت الآن مزاجا من الكتابة الكوفية الرائعة والفروع النباتية الجميلة؟ يتبع

محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية

---

(١) رحلة ابن بطوطه ص ٣٣ طبعة مصر سنة ١٣٢٢ هـ

(٢) كانت معظم القباب القديمة صغيرة تحمل فوق غرف مستديرة وكان استعمالها محدودا جدا وفى القرن الثانى الميلادى اهتدى السوريون الى اختراع طريقة معمارية استطاعوا بها إنشاء القبة فوق غرفة مربعة وفى القرن الثالث اهتدى الفرس الى وسيلة أخرى تؤدى الى نفس الغرض وقد أخذ المسلمون هذين الاختراعين وهذبوهما واستطاعوا بهما أن ينشئوا أعظم القباب وأبدعها.

أنا لله

إنا لله وإنا إليه راجعون . ننعى الى قراء مجلة الأزهر واحداً من العلماء العاملين هو المرحوم الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن الجزيرى أحد محرريها الممتازين . توفاه الله فى أوائل شهر رمضان بعد مرض مزمن لازمه سنين ولكنه ما كان يقعده عن الافادة والتأليف ، فكان لوفاته وقع عظيم فى قلب كل من عرف فضله من قراء هذه المجلة .

كان رحمه الله كبيراً لمفتشى المساجد بوزارة الأوقاف ثم استقال منها بعد قيامه بمهمته سنين ، واشتغل بتدريس الفلسفة فى كلية أصول الدين ، فكان من أحرص المدرسين على الاضطلاع بما عهد إليه ، وكان يحمل نفسه فى هذه السبيل جهداً باهظاً تحت ضغط علته التى كانت تتقاضاه الراحة المطلقة . ولما عين محرراً لباب السنة من هذه المجلة كان لا يألوها مثابرة وعناية .

وله رحمه الله كتاب ضخم فى الفقه يقع فى أربعة مجلدات ، يعتبر مرجعاً قيماً لمسائله ، وله كتب أخرى فى أغراض شتى كلها ممتعة . تغمده الله برحمته ، وألهم آله الكرام الصبر على فقده .

***

الرسالة الفاروقية الخالدة ، فى مناسك الحج والعمرة :

وضع هذا الكتاب مهندس ضليع بمصلحة المساحة والمناجم بالزقازيق ، هو الأستاذ عبد الوهاب مصطفى ، وقد أقرت ما فيه لجنة من العلماء تحت إشراف فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبى العيون شيخ علماء الاسكندرية .

أهدى المؤلف الفاضل كتابه هذا لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، ووسمه باسمه الكريم ، وهو جدير بأن يحظى بهذه التسمية المباركة . وإنى جد معجب بهذه الرسالة لما اشتملت عليه من مناسك الحج بحيث لا يحتاج مقتنيها الى مرجع غيرها ؛ وجمعت الى ذلك من أوصاف الأمكنة المقدسة ، ما يجعل تاليه كأنه يشاهد بعينيه تلك المواطن الشريفة ، فى بيان شائق ، وشرح موف بالحاجة ، فهو من الكتب النادرة التى يصاحب فيها واضعها التوفيق فتأتى فوق ما يرجو أن تكون عليه .

الى حضرات قراء مجلة الازهر

بهذا العدد تم المجلد الثانى عشر لهذه المجلة . وسيصدر أول عدد من مجلدها الثالث عشر فى أول المحرم من سنة ١٣٦١ إن شاء الله . فنرجو حضرات قرائنا أن يذكروا أن نظامنا يقضى علينا بأن لا نرسلها إلا لمن يجدد طلبه لها مصحوباً بقيمة اشتراكها كله أو نصفه ، فنرجوهم أن لا يعتبروا ذلك جفاء منا . وليكن هذا مجزئاً عن الكتابة لكل من حضراتهم خاصة .

References

1. Bosworth Swith "Mohamed and Mohamedanism."
2. "Islam" Her Moral and Spiritual Value" by Major Arthur Glyn Leonard.
3. Crawford's "Indian Archipelago."
4. Rev. J. N. Thoburn, "Report for the Allahabad Missionary Conference."
5. Papers relating to "Her Majesty's Colonial Possessions"
6. Livingstone's "Expedition to the Zambesi."
7. Trench on "Words."
8. Webster's Dictionary.
9. Renan, "Etudes d'Histoire Religieuse"
10. Quarterly Review.
11. George Sale's "Translation of the Koran, Preliminary Discourse."
12. Sir Henry Layard's "Early Travels."
13. Abulfeda.
14. Ed. Pocosk.
15. Koran.
16. Eusebius History.
17. Epiphan.
18. Sir William Muir, "The Life of Mohammed."
19. Ibn Athir.
20. Herodotus.
21. D. Herbelot.
22. Al Shahristani
23. Abul Farag
24. Sayed Amir Aly. "The Spirit of Islan."
25. Ibn Hisham.
26. Hugh's "Dictionary of Islam"
27. Mishkat-ul-Massabeeh.
28. Al Tabari.
29. Al Wakidi.
30. Droits Musulman by M. Querry.
31. Caussin de Perceval.
32. Stanley Lane Poole, "Selections from the Koran."
33. Lectures on "Heroes and Heroship," by Thomas Carlyle.
34. Old Testament
35. Al Razi
36. Qadi Ayad's "Al Shifa."
37. Washington Irving, "Life of Mohamet."
38 Dr. Noldeke's Book on Islam.
39. T. W. Arnold's "The Preaching of Islam."
40. The Review of Religions.
41. Al Ghazali.
42. Nawab Sultan Jahan Begum Sahiba, Ruler of Bhopal's "Muslim Home."
43. "Mohammedan Jurisprudence," by Abdul Kader.
44. New Testament.
45. J. Milton's "A Treatise on Christian Doctrines."
46. Holland's Jurisprudence.
47. "Ghunyat el Talibeen.
48. Malik's Mowattaa.
49. Fatawi Moughiri.
50. "Personal Law of Mohammedans" by Abdul Kader
51. Bukhari's Commentary.
52. Zamakhshari's Commentary of the Koran.
53. Goethe's West-Oestlicher Divan.
54. Peake's Commentary of the Bible.
55. Encyclopaedia Biblica.
56. Rev. Dummelow's Commentary.
57. Dr. Ph. Schaff's Companion to the Greek Testament and the English Version
58. Dr. Weymouth's Introduction to St. John's Gospel.
59. Rev. Margoliouth's Introduction to Rodwell's Translation of the Koran.
60. Chambers's Encyclopoedia.

ERRATA

The reader is kindly requested to make the following corrections before reading :

Wrong	Right	Page	Line
Permitted	permitted	3	12
Bosworte	Bosworth	14	Footnote(5)
prophet	Prophet	17	21
Godesses	Goddesses	20	28
godesses	goddesses	23	12
querrels	quarrels	24	27
preliminery	preliminary	24	34
where	were	26	27
constallation	constellation	26	34
whom	the males	30	17
so persecution	to persecution	29	21
occured	occurred	33	39
vally	valley	47	16
slin	slain	47	22
niles	miles	50	27
Droi	Droits	50	footnote
ntrcductiou	introduction	51	22
idolators	idolaters	52	26
alloted	allotted	54	8
Prophe	Prophet	54	32
Koarn	Koran	55	38
prophet	Prophet	56	38
detachement	detachment	58	1
Suirit	Spirit	58	footnote
nor philosopher	nor a philosopher	64	5
bhite	white	66	5
veiwing	viewing	69	30
Cod	God	71	
declars	declares	75	36
bath	hath	80	33
spec es	species	88	14
resistence	resistance	89	27
Begam	Begum	94	footnote
Begam	Begum	96	footnote
arbitratiors	arbitrators	111	8
to be	be to	136	32
ihe	the	140	38
excellencies	excellences	152	27
bu	but	157	6
worshiping	worshipping	189	37
texual	textual	199	32
vailed	veiled	207	52
or	of	214	31

The style is excellent. If the book is published I recommend that copies be placed in the School Libraries as it would be read by the European member of the staff with profit.

— 10 —

Translation of a report submitted to H. E. the Minister of Education, Cairo by Professor Gad el Moola Bey, Inspector General of Arabic at the Ministry :

I have gone through this Book, "The Religion of Islam." It embodies authentic illustrations of a good deal of Islamic questions. As such, it serves as a guide to the Religion of Islam. I agree with my colleague, Professor Walker in that copies of the Book be placed in the School Libraries as it will be read by the members of the European Staff with profit.

— 11 —

Extract of a letter addressed to the author by Professor A. H. Sewyer, Professor of English, Faculty of Agriculture, Egyptian University, Cairo.

. . . .

It would be a great loss if this book were not published.

There is a great new movement in all Moslem Countries, tending towards the development of character and the substitution of deeds for words. There is, at the same time, a determination to use all the best that the scientific developments of the West have perfected. I therefore, hope that someone equally gifted and devout may write a Companion Volume to bring out the good points of Christianity in the formation of right thinking and action, so that a study of the two may lead to a still better feeling between the followers of the two great Religions, which have done so much to help world development, Islam by its great brotherhood under the One God as expounded by Mohamed, and Christianity by its individualistic responsibility to imitate as far as possible, the life of Christ.

A full and accurate knowledge of each other's aspirations must lead to that good understanding you claim as the goal of your book.

— 8 —

Translation of an Arabic letter addressed to the author by Professor Mohammad Farid Wagdy Chief Editor of the Azhar University's Official Review :

May God's Peace and Blessings be showered upon you !

I have perused your very interesting book "The Religion of Islam." I find it to be one of the best compilations that have ever dealt with this important subject. Your minute and clear exposition of the fundamental and more essential doctrines of Islam are remarkably admirable. The book shows the author to be a great learned scholar, who, meantime, is gifted with such a brilliantly enlightened spirit.

I have no sooner brought up the matter to the notice of His Eminence the Rector of the Azhar University asking his authorisation to insert the Book in monthly instalments in the University's Official Organ, Al Azhar Review. I am glad to state that His Eminence is so pleased to give his acceptance. Hence my letter to you, begging you will kindly let me know if you have no objection to the project being carried out as soon as possible. . . . .

Again, I invoke upon you Almighty God's Peace and Blessings.

— 9 —

Extracts of a Report submitted to H. E. the Minister of Education, Cairo by Professor J. Walker of the Ministry :

The book is a work of considerable literary merit.

I have, with very great interest, read the manuscript of the "Religion of Islam and the life of the Prophet Mohammed."

I should say : that as a devout follower and believer in the Koran and the source of its inspiration, the Prophet Mohammed, you have in this treatise set forth such an interpretation of it as shall make more easily understood the fundamentals of this Prophet's teaching.

A fine charitable spirit, accompanied by lucid expression and diction, pervades the whole text.

— 6 —

Copy of a letter from Mr. Hermann Besser, Orientalist, Cairo :

I have just finished the reading of your book and I should like to express to you the deep impression its perusal has made upon me. As one, to whom the study of Eastern religions has been a matter of great attraction during more than forty years and to whom the various works on the Prophet and his Mission are not altogether unknown, I will say that I have never seen this great subject treated with more sincerity, dispassionateness, lucidity, fairness and, at the same time, with a nobler conviction of the truth of the author's own faith, that the work could not have been better described than that of a True Moslem.

As such, it should be of inestimable value to all searchers after Truth throughout the world, and this particularly in an age when materialism threatens to discredit and overcome, in the minds of mankind, those "Things That Really Matter."

That a book of this nature cannot but call forth criticism and opposition from the part of orthodox adherents of other creeds is certain, but as long as these follow the example of tolerance set in your book and no other can matter, the great value of your book and its leading idea of helping men forward, however little, in the way of right understanding, will, I truly believe be, in no wise, affected.

— 7 —

Copy of a letter from Colonel A. S. John Cooks, of London :

I have read your book with great interest. I am fully alive to the need of a better understanding by the Christian Nations of the basic facts of the Islamic Religion and I wish your book every success in consequence.

Many of the English speaking races will, I feel sure, welcome the opportunity to read a book which gives such a restrained and well balanced account of the teaching of Islam.

In your book you have collated and compiled in a most interesting manner the relevant facts about Mohammedanism. The person of Mohamed must always be a subject of great interest and the gathering of so much information between two covers forms most illuminating reading.

While many readers may have a general idea as to the teaching of Islam, this book presents an opportunity to authenticate their knowlodge and appreciate the religious attitude of present day Moslems, on such matters as polygamy, status of women etc.

The prevailing tendency of the world is to judge a religion by its followers instead of first enquiring what the religion taught by the founder was. I think the present book will do much to present the teaching of the Prophet Mohamed in a reasonable and enlightened manner to all who by inclination or circumstance come in contact with his followers and read it.

I must congratulate you on the excellence of the diction and the general tone of moderation which pervades the book.

— 4 —

Copy of a letter from Professor Gerald Brackenbury of the Higher Training College, Ministry of Education Cairo :

I have read Ahmed Galwash's book on Islam with the greatest interest. It presents the case for Islam in a very striking way, and shows a deep knowledge of the Higher Criticism of the Bible and of the most recent arguments used by the chief Anglican Divines against the literal inspiration of the Scriptures. By his quotations from Christian writers he shows himself independent of mere prejudice.

It is important in these days of free thought for all liberal-minded Christians to escape from their prejudices inherited from the Crusades and to learn the spirit of Islam as it exists in the mind of a devout Moslem.

I hope the book will be published and will have the success it deserves. The mastery of English shown is remarkable.

— 5 —

Copy of a letter from Dr. H. E. Morton Howell, Minister and Plenipotentiary of the United States of America to Egypt :

Comments, Reports
and
Letters on the Book.

— 1 —

A letter from Mr. William M. Johnson (Pussyfoot) of the U.S.A :

I was much interested in the manuscript of your book. I read it far into the night and got a pretty good idea of its contents.

In regards to your remarks on plain speaking in your preface, I could not find anything in the book that need offend the most sensitive.

It is, of course, and properly so, written from the Moslem standpoint, and I should like to see it, published. I would like to have Christians generally read it, for it would give them a new conception of what Islam really is ....

If there is anything that I could do in London to promote the project of publishing the book I would be glad indeed to do so.

— 2 —

Extracts of a letter from Mr. E. V. Finbert, editor of the worthy review "Les Messages d'Orient," Paris :

Many of our friends who are specialised in religious problems are delighted with the substantial documentation and specially with the fervour and sincerity of your writing. I would ask you to send me as soon as possible the manuscript which I already had the pleasure to read with the greatest interest. I would start translating it into French and have it published in our collection of modern eastern works. ......

I am always with you in spirit and communion of what constitutes the highest of life.

— 3 —

Copy of a letter from Major T. H. Stern, Adviser, Irrigation Office, Alexandria, Egypt :

I have read your book "The Religion of Islam" with much interest and feel that the objects set forth in the preface have been very ably pursued.

Information about the religion which numbers such a vast proportion of the world's inhabitants amongst its adherents connot but be of very real value.

الفهرس العام

السنة الثانية عشرة (١٣٦٠ هـ) من مجلة الأزهر